حسين السيد

رواية

دير النعمان



دير النعمان

دير النعمان

الكتاب: دير النعمان

المؤلف: حسين السيد

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغوي: عبدالله عثمان

رقم الإيداع: 2021/14307

الترقيم الدولي: 978-977-778-278-4

الطبعة الأولى:2021

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

info@noonpublishing.net

دير النعمان

رواية

حسين السيد

ن للنشر والتوزيع

دار الكتب والوثائق القومية

فهرسة أثناء النشر أعداد الشؤون الفنية

السيد، حسين

دير النعمان: رواية/ حسين السيد. تصميم الغلاف: أسامة علام،

تدقيق لغوي: عبدالله عثمان_ الجيزة: ن للنشر والتوزيع٢٠٢١

٢٣٦ص، ١٤×٢٠ سم

تدمك: ٤-٨٧٢-٨٧٧-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- علام، أسامة (مصمم)

ب_ عثمان، عبدالله (مدقق لغوي)

ج_ العنوان

رقم الإيداع: ٢٠٢١/١٤٣٠٧

التاريخ: ٢٠٢١/٦/٩

٨١٣

(1)

كانت الشاحنة المتهالكة، تتأرجح فوق الطريق الرملي غير الممهد، ككرة من المطاط تطوحها الأقدام. كان نهارا شتويا غائما. وفي الأفق توارت الشمس خلف السحب الرمادية الكثيفة، بينما أخذت موجات متلاحقة من الرياح الباردة تضرب السيارة بعنف وهي تصفر في قوة.

لو كان فتحي عبد الوهاب الطبيب الشاب القادم من القاهرة قد عاش في الإسكندرية لبعض الوقت لقرأ تلك العلامات ولأدرك أن هناك نوة شتوية عنيفة قادمة لا محالة بعد وقت قصير

عاد سائقها العجوز اللحوح لمحاولاته الدؤوبة في فتح سبيل للحوار:

-معذرة أيها الشاب. لكنني لا أفهم ما الذي يدفع أي شخص عاقل للذهاب إلى دير النعمان؟

-أخبرتك منذ اللحظة الأولى أنه عملي! أنا أعمل كطبيب وقد تم تكليفي بالعمل هناك.

أجاب فتحي باقتضاب، وعيناه معلقتان بالصحراء الممتدة من حوله في كل اتجاه على مرمى البصر. رمقه السائق بنظرة جانبية في بعض الشك قبل أن يقول:

-ولماذا اخترت تلك البلدة بالذات، معذرة لو ظننت أنني رجل يدس أنفه فيما لا يعنيه يا دكتور، لكن حين

تـرى ديـر النعمـان وتعيـش فيهـا سـتفهم سـر دهشـتي، إنهـا بلـدة منسـية لا يعرفهـا الكثيـرون، حتـى السـائقين فـي موقـف السـيارات أغلبهـم لـم يسـمع بهـا قـط، ومـن سـمع بهـا لا يعـرف كيـف يذهـب إليهـا.

كان السـائق صادقـا فـي هـذا، فحيـن وصـل فتحـي إلـى محطـة سـيارات الأجـرة بطنطـا فـي الصبـاح الباكـر، وراح يسأل جميع السـائقين والمناديـن في محطـة السـيارات عن بلـدة -ديـر النعمـان- أجابـه أغلبهـم بأنهـم لـم يسـمعوا بهـا مـن قبـل، لكـن العجيـب أنـه رأي فـي عيـون البعـض أنهـم يعرفـون تلـك البلـدة. كانـوا يتبادلـون النظـرات الغريبـة المتوجسـة حينهـا، قبـل أن يجيـب أحدهـم فـي عـداء لا مبـرر لـه:

- لا نعرفها

بـل إن أحدهـم وقـد كان سـائقا عجـوزا بدينـا لـم يحلـق ذقنـه مـن أكثـر مـن أسـبوع كامـل، صـرخ فـي وجهـه:

- المجنـون فقـط هـو مـن قـد يفكـر فـي الذهـاب بقدميـه لتلـك البلـدة اللعينـة. لـو كنـت مكانـك أيهـا الشـاب لعـدت أدراجـي ونسـيت أمـر تلـك البلـدة تمامـا.

سـأله فتحـي عـن تفسـير مـا قالـه، لكـن السـائق أعـرض بوجهـه عنـه ونهـض مـن مكانـه ورحـل بعيـدا دون أن يهتـم بإجابتـه. مضـت نحـو السـاعة وقـد فشـل فـي العثـور علـى عربـة تقـوده إلـى ديـر النعمـان، قبـل أن يتوقـف خـارج موقـف السـيارات فـي حيـرة والمطـر يغـرق رأسـه. هنـا

ظهر عبدالناصر البربري، سائق عجوز نحيل للغاية كأعواد الثقاب، عيناه حمراوان، وذقنه طويلة ومقدمة أنفه السائل محتقنة، من الوهلة الأولى أدرك فتحي أنه مدمن شراب، ووجد الرجل يقول:

- لن يقودك إلى تلك البلدة أي منهم أيها الشاب المسكين، لكن اليوم هو يوم سعدك يا فتي، ولهذا سأقلك أنا إلى هناك، لكن الأجرة ستكون مضاعفة.

لم يفكر فتحي في الأجرة المضاعفة، ووافق على الفور رغم ان رائحة الرجل وهيئته الرثة لا توحي بالثقة، فقاده الرجل إلى شاحنة بضائع متهالكة، وتناول حقائبه وراح يرفعها نحو سطح الشاحنة وهو يقول:

- لا تلق بالا لهيئتها، إنها شاحنة قوية وتستطيع أن تصعد بها قمة جبل لو شئت، سوف ترى بنفسك.

وها هو الآن داخل الشاحنة ومازال عبد الناصر البربري سائقها يدخن سيجارة تلو الأخرى دون أن يكف عن الحديث، سجائر ملفوفة تنبعث منها رائحة عشبية مميزة.

رائحة الحشيش!

إذن فالرجل ليس سكيرا فحسب، بل ويتعاطى المخدرات كذلك.

غمغم فتحي وهو يشعل سيجارة من علبة سجائره هو الأخر، وقد لاحظ أن الطريق الصحراوي من حوله لا يحمل أي إشارات أو دلالات تشير إلى أين يتجهون رغم انقضاء

نحـو السـاعة وهـم يسـيرون علـى طريـق رملـي صخـري:

- هل تعرف حقا أين هي دير النعمان؟

- هـذا مـن حسـن حظـك أيهـا الشـاب المتشـكك فـي عبـد الناصـر البربـري المسـكين، لقـد اعتـدت منـذ سـنوات كثيـرة أن أنقـل منهـا التمـر والزيتـون والتيـن إلـى طنطـا مـع بعـض السـائقين الآخريـن، وفـي طريـق العـودة أحمـل فـي شـاحنتي مـا تحتاجـه البلـدة مـن بضائـع وسـلع. ظـل هـذا يحـدث حتـى العـام الماضـي. بعدهـا لـم يعـودوا يطلبوننـي. صدقنـي لقـد ظننـت مـن قبـل أننـي لـن أراهـا ثانيـة.

غمغم فتحي في ضجر:

- وها أنت تفعل؟

- فقط من أجل خاطرك يا دكتور.

- ولماذا لا تقل إنه لقاء الأجر المضاعف الذي طلبته.

- إنــه أجـر عــادل تمامـا يـا دكتـور. أرجـو ألا تظـن أنـي ظلمتـك أو اسـتغللتك، صدقنـي لا أحـد يجـرؤ علـى المجـيء لهـذا الطريـق، إنــه خطـر للغايـة، انظـر حولـك إلـى تلـك الكثبـان الرمليـة الناعمـة اللعينـة، إنهـا ليسـت متماسـكة وثابتـة كمـا تبـدو، إنهـا رمـال متحركـة خادعـة ماكـرة، بحيـرات مـن الرمـال الحيـة تنتظـر فقـط لـو أخطـأت الطريـق ولـو لأمتـار قليلـة لتصنـع لـي وسـيارتي قبـر أنيقـا أسـفلها، لكننـي صـرت خبيـرا بهـذا الطريـق، ويمكننـي أن أقـود السـيارة فيـه وكلتـا عينـاي مغلقتـان.

رمـق فتحـي الكثبـان الرميلـة الناعمـة الصفـراء، ثـم نظـر للسـائق الـذي تبـدو عليـه بعـض آثـار الثمـل، قبـل أن يتمتـم فـي قلـق:

- سـأكون ممتنـا أكثـر لـو أبقيـت عينيـك مفتوحتيـن، وانتبهـت للطريـق حتـى نصـل للبلـدة.

لاذ السـائق بالصمـت مـرة أخـرى فـي تذمـر وهـو ينفـث سـيجارة نفـاذة الرائحـة وكأنـه لا يريـد أن يصمـت، تمنـى فتحـي لـو يطـول صمتـه هـذا المـرة لفتـرة أطـول، يعلـم أن السـائق العجـوز النحيـل سيعود بعـد قليـل لمحاولـة الحديـث معـه ثانيـة، فمنـذ السـاعة وهـو يفعـل، يعـود ليسـأله لمـاذا يرغـب فـي الذهـاب إلـى ديـر النعمـان، ثـم يحـاول أن يرهبـه مـن هـذا المـكان بكلمـات مبهمـة غامضـة.

تمنـى فتحـي لـو تركـه لحالـه، فـي النهايـة هـو لا يؤمـن أو يكتـرث بخرافـات الرجـل أو أوهامـه ولـو للحظـة واحـدة.

راح يتأمـل الصحـراء الممتـدة أمامـه بـلا نهايـة وكثبانهـا الرمليـة ترسـم لوحـات سـاحرة مـن هضـاب وتـلال منخفضـة وأخاديـد طـوال الوقـت، فـي الماضـي كان يكتب الشـعر، وكان يهـوى الصحـاري ويعتقـد أن رمالهـا الغامضـة أكبـر محفـز للتأمـل والحكمـة، الآن صـارت الصحـاري لا تذكـره بغيـر الـدم واللحـم المحتـرق والأشـلاء الممزقـة والجثـث المكومـة علـى الرمـال لتفترسـها الضـواري، ولا تجـد مـن يدفنهـا.

صـارت الصحـاري تذكـره برائحـة الخـوف والمـوت. تذكـره بالطائـرات القادمـة مـن السـماء كوحـوش مـن الماضـي،

محملـة بالقذائـف والرصاصـات والهلـع والمـوت.

كانـت الصحـراء تذكـره بالعطـش الرهيـب الـذي دفعـه فـي النهايـة لشـرب بولـه كـي لا يمـوت مـن الظمـأ.

كانـت الصحـراء تذكـره بالهزيمـة المريـرة التـي سـيظل طعمهـا المريـر فـي حلقـه وحلـق مـن بقـي حيـا مـن رفاقـه إلـى أبـد الدهـر.

نبـض فخـذه الأيسـر بالألـم، وكأنمـا ذكـرت الصحـراء قدمـه بإصابتهـا الكبيـرة والتـي تـم إعفـاؤه مـن اسـتكمال خدمتـه بالجيـش بسـببها،تذكر تلـك الشـظية التـي نتجـت عـن قذيفـة لا يـدري إن كانـت قـد جـاءت مـن السـماء مـن فوقـه، أم مـن أسـفل قدمـه، لتسـتقر فـي عظمـة فخـذه، وسـببت لـه عاهـة مسـتديمة وعرجـا لـن يـزول كمـا أخبـره الجـراح فـي المستشـفى العسـكري.

نفـض تلـك الأفـكار السـوداء عـن رأسـه، وهـو يـرى مـن بعيـد مـا بـدا لـه كقمـم النخيـل، بينمـا هتـف السـائق في انتصـار:

- لقـد اقتربنـا. دقائـق عشـر فقـط ونكـون هنـاك. هـل تـرى رؤوس النخيـل تلـك؟ إنهـا مدخـل ديـر النعمـان.

- أشكرك.

أخـرج السـائق قنينـة معدنيـة صغيـرة ارتشـف منهـا بضـع جرعـات، ثـم أعادهـا لجيبـه وفتحـي يراقبـه، إنهـا خمـر رخيصـة بـلا شـك، لكنـه تجاهلهـا، بينمـا نظـر السـائق أمامه

وقـال محـذرا بصـدق:

- صدقنـي لـو كنـت مكانـك يـا دكتـور لتراجعـت، عـد للقاهـرة وأخبـر مـن أرسـلوك أنـك لـم تنجـح فـي الوصـول إلـى تلـك البلـدة اللعينـة. حـاول أن تبحـث عـن واسـطة فـي عملـك ترسـلك إلـى مـكان آخـر. الأمـر كمـا أعتقـد ليـس مسـتحيلا.

- ربما فات وقت التراجع بالفعل.

- مـن قـال هـذا؟ يمكننـي أن أعيـدك الآن إلـى طنطـا. بـل يمكننـي أن أعيـدك للقاهـرة نفسـها لـو شئـت. فقـط لـو قـررت هـذا.

نظر إليه فتحي في شك، ثم قال ببطء:

- هل تخفي شيئا عني؟

هـرب السـائق مـن نظرتـه قبـل أن يـدس سـيجارة جديـدة ملفوفـة فـي فمـه لتعـود الرائحـة النفـاذة لتمـلأ فـراغ السـيارة، قبـل أن يقـول:

- أنا لا أعلم شيئا لأخفيه.

أخرج فتحي حافظته من جيبه ونقده أجره، وهو يقول:

- أشـكرك مـرة أخـرى. لكننـي أعتقـد أننـي أرغـب فـي البقـاء هنـا بعـض الوقـت.

رمقـه السـائق وكأنـه يشـك فـي أنـه هـارب مـن شـيء مـا. هيئتـه السـقيمة ونظرتـه الزائغـة غيـر المسـتقرة تشـي بـأن هـذا الشـاب وراءه سـر مـا. ربمـا كان هاربـا مـن ثـأر مثـلا؟

ربمـا اقتـرف جريمـة مـا ويرغـب فـي الاختبـاء مـن أعيـن الشـرطة. وربمـا كان مجـرد شـاب تعيـس قـاده سـوء حظـه إلـى هنـا جاهـلا بمـا هـو مقـدم عليـه مـن أخطـار.

كان الفضـول يقتـل ناصـر البربـري ليعـرف حكايتـه، لكنـه يعلـم أن هـذا الشـاب الغامـض لـن يجيبـه مهمـا سـأل. رمقـه مـرة أخيـرة بعيـن دامعـة وهـو يمسـح أنفـه فـي منديـل قذر، ثـم التـف بالسـيارة ليتفـادى حجـرا ضخمـا يعتـرض طريقـه، قبـل أن يهـز رأسـه فـي غيـر تصديـق ويغمغـم فـي سـره:

- كلا هـذا الشـاب لا يبـدو أبـدا كمجـرم، هـو للمجـذوب أقـرب، ربمـا هـو بائـس هزمتـه الحيـاة.

أمـا فتحـي، فقـد واصلـت عينـاه مسـح المـكان، مـن حولـه بـدأ اللـون الأصفـر للرمـال فـي الانحسـار تدريجيـا مفسـحا المجـال للـون الأخضـر، مـزارع شاسـعة علـى مـد البصـر مـن أشـجار الزيتـون والتيـن والنخيـل. لكـن العجيـب أنـه رغـم أنـه فـي وقـت الظهيـرة، فلـم يـر أي شـخص يعمـل فـي المـزارع. فقـط لاحـظ أن ثمـار الزيتـون متراكمـة فـوق الأغصـان وكأنمـا لا أحـد يعبـأ بقطفهـا.

تقدمـت السـيارة أكثـر وأكثـر نحـو البلـدة وقـد ظهـرت مبانيهـا المنخفضـة مـن بعيـد، ووجـد فتحـي السـائق يقـول فـي دهشـة:

-كمـا تقـول الهمسـات، مـن العسـير أن تلتقـي بأحدهـم طالمـا لـم تدخـل البلـدة.

- لقد لاحظت هذا، فلم نلقى في طريقنا أي شخص في الحقول أو الطريق.

- لا أدري ما سر هذا، لكن هذا غريب، في الماضي اعتدت في مثل هذا الوقت أن ألتقي ببعض الصبية وهم يرعون الغنم، وبعض المزارعين وهم يجمعون ثمار تلك الأشجار.

كان قلب فتحي متوترا بشدة وهو يشعر أن هناك ما يريب في هذه البلدة، وهمس:

- حتما هناك تفسير.

- وما شأني بالتفسير، دوري أن أوصلك إليها، وها قد فعلت، لقد وصلنا إلى نهاية الرحلة بالفعل أيها الشاب.

قالها وقد بدأ يهدأ من سرعة شاحنته، قبل أن يتوقف بين جدارين حجريين متهدمين يبدوان وكأنهما ما بقي من سور حجري قديم كان يحيط بالبلدة في أزمنة غابرة. والتفت السائق اليه وقال مبتسما:

-سوف تهبط هنا يا دكتور.

-ألن ترافقني بالسيارة لداخل البلدة؟

ولا متر واحد بعد هذا المكان، أهل هذه البلدة يرفضون تماما أن تتقدم أي مركبة متراً واحداً خلف هذه البوابة.

- أي بوابة تقصد؟

- تلك الفرجة بين هذين الجدارين الحجريين. إنه مدخل البلدة وهم يطلقون عليه البوابة.

أمـام إصـرار السـائق لـم يجـد فتحـي بـدا مـن الترجـل، بينمـا هبـط السـائق هـو الأخـر واعتلـى سـطح الشـاحنة ثـم نـاول فتحـي حقيبتيـه الضخمتيـن. وهبـط بعدهـا ليقـول:

- هنـاك الكثيـر مـن البغـال والحميـر فـي القريـة. سـتجد حتمـا أحـد مـا ينقـل تلـك الأغـراض مـن أجلـك إلـى وجهتـك.

- لا بـأس، لكنـك سـتعود بعـد أسـبوعين لتعيدنـي إلـى طنطـا كمـا اتفقنـا.

ابتسم السائق العجوز في مكر وهو يقول:

- لـو لـم أفعـل لقضيـت مـا بقـي لـك مـن عمـر فـي تلـك البلـدة الكئيبـة. لكـن اطمئـن يـا دكتـور، سـوف أعـود فـي مثـل هـذا الوقـت وبالطبـع عليـك أن تكـون بانتظـاري هنـا فـي الموعـد وإلا غـادرت مـن دونـك.

راقبـه فتحـي وهـو يبتعـد بالسـيارة، ثـم ولـى وجهـه نحـو البلـدة التـي بـدت فـي تلـك اللحظـة صامتـة كالقبـور، ولا أثـر واحـد للحيـاة يأتـي مـن داخلهـا، أيـن ناسـها ولمـاذا اختفـوا؟ أسـئلة محيـرة، لكـن السـؤال المهـم كيـف يصـل للوحـدة الصحيـة وهـو لا يـدري مكانهـا، كمـا كانـت حقائبـه الثقيلـة تبعـث الضيـق فـي نفسـه. فـي النهايـة لـم يجـد مفـرا مـن دخـول البلـدة وانتظـار أن يتعثـر فـي أحـد سـكانها حتـى يسـأله النصيحـة. فحمـل حقيبتيـه وتقـدم داخلهـا.

***

(2)

الصمت من حوله كان مريبا. صمت كامل، صمت سديمي بكر. وكأنما اختفت الأصوات كلها في هذه البلدة العجيبة، فقط أصوات خطواته كانت تلك التي تبلغ أذنيه، وحتى تلك حاول أن يصنعها بأقل ضجة ممكنة وكأنما يخشى أن يكسر هذا الصمت السرمدي.

اجتاز البوابة الحجرية المتهدمة وسار لنحو المائتي متر قبل أن ينقسم الطريق أمامه، طريق يتجه للشرق وآخر نحو الغرب، وعلى جانبي كل طريق تراصت بيوت البلدة إلى جوار بعضها البعض في تلاحم تام، بيوت قديمة أغلبها مبني بالحجارة، كانت البيوت من طابق واحد أو اثنين على الأكثر، بيوت ذكرته بمنازل أهل قريته التي انحدر منها أبواه، لولا أن الأخيرة كانت من الطوب اللبني، الطوب الأخضر كما يحلو للفلاحين تسميته.

الحقائب في يده كانت ثقيلة، وهو واقف لا يدري إلى أين يتجه، فقط لو يرى أحدا من أهل تلك البلدة الغامضة، ويخبره أين هي الوحدة الصحية ليتجه إليها. دار رأسه بحيرة أكثر من مرة ثم حزم أمره، اتخذ الطريق الشرقي وهو يدعوا اللّه ان يكون حدسه سليما. راح يتلفت حوله طوال الوقت، ينتظر أن يسمع صوت واحد من خلف الأبواب الخشبية الموصدة في وجهه، صوت واحد يهدئ من روعه، تمنى لو يسمع صوت امرأة تطبخ، صريخ رجل يزعق، بكاء طفل يصرخ، حيوان يخور، طائر

يزقـزق. أي صـوت يخبـره أن أهـل تلـك البلـدة موجـودون.

ثـم ارتجـف قلبـه لخاطـر عجيـب، مـاذا لـو كان كل سـكان البلـدة قـد هجروهـا لسـبب مـا، تذكـر قـول السـائق العجـوز الـذي أخبـره أنـه لـم يعـد للبلـدة منـذ عـام كامـل. مـاذا لـو كانـوا قـد غادروهـا إلـى مـكان آخـر ولـم يصـل مثـل هـذا الخبـر لرجـال وزارة الصحـة فـي القاهـرة، فأرسـلوه اليهـا وهـم لا يعلمـون أنهـا خاويـة علـى عروشـها؟!

خاطـر مرعـب، لـو كان هـذا صحيحـا فهـذا يعنـي أن يقضـى نحـو الأسـبوعين بمفـرده فـي بلدة مهجـورة وسـط الصحـراء. حتـى يأتـي ناصـر البربـري ليعيـده للعالـم الحـي ثانيـة.

توقـف وهـو يلهـث، وفكـر للحظـة وهـو يرمـق البيـت المقابـل لـه فـي تحفـز إن كان عليـه أن يطـرق بابـه ليتأكـد بنفسـه إن كان هنـاك مـن يحيـا خلفـه أم لا.

ثـم رفـع رأسـه نحـو السـماء، نحـو قمـم النخيـل، كان يفتـش ببصـره بحثـا عـن طائـر مـا، عصفـور، غـراب، صقـر.. أي طائـر يحـوم فـي الفضـاء، لكـن السـماء بـدت أمامـه خاويـة علـى عروشـها. الأمـر ليـس هجـرة أهـل تلـك البلـدة بـلا شـك، لـو هجـر البشـر البلـدة، فلـن تفعـل الطيـور أو الحيوانـات الضالة كالـكلاب مثـلا، طالمـا هنـاك نبـات ومـاء. إنـه لـم يلـق كذلـك كلـب ضـال واحـد أو قـط أو حتـى جـرذ صغيـر.

وكطبيب راح خاطر مفزع ينمو ببطء في مخيلته.

ماذا لو كانوا موتى؟

مـاذا لـو كان هـو الشـخص الوحيـد الحـي فـي بلـدة أهلهـا أمـوات؟

هـل تكـون عـدوى مـا أصابـت أهلهـا فأهلكتهـم. كطبيـب يعلـم أن الأوبئـة قـد تفعـل هـذا. لطالمـا أفنـت الكوليـرا والطاعـون والانفلونـزا. راح عقلـه يسـتعيد مـا درسـه فـي علـم الأمـراض والوبائيـات.

فبيـن عامـي **541** و**542** م، ضـرب طاعـون جاسـتينيان العالـم آتيـاً مـن الإمبراطوريـة البيزنطيـة، وأودى بحيـاة أكثـر مـن ٣٠ مليـون شـخص.

وفـي عـام **735م**، ظهـر وبـاء الجـدري اليابانـي بطوكيـو وانتقـل إلـى البلـدان المجـاورة وأدى خـلال سـنتين إلـى مقتل نحـو مليـون شـخص.

تذكـر كذلـك مـا درسـه عـن أكثـر الأوبئـة فتـكاً علـى مـر التاريـخ، كان الطاعـون الدملـي، والـذي سـمي أيضـاً «المـوت الأسـود»، وقـد انتشـر بيـن عامـي **1347** و **1351 م**، وتسـبب فـي وفـاة مـا يقـرب مـن **200** مليـون شـخص حـول العالـم، يعتقـد العلمـاء أنـه نشـأ فـي الصيـن أو بالقـرب منها، ثـم انتقـل إلـى إيطاليـا وبعـد ذلـك إلـى باقـي أنحـاء أوروبـا، ثـم إلـى مختلـف دول العالـم. أمـا الجـدري، فقـد حصـد أرواح **56** مليـون شـخص عنـد ظهـوره فـي عـام **1520م**.

فيمـا أودت الكوليـرا بحيـاة مليـون شـخص حـول العالـم بيـن عامـي **1817** و **1923**م، وفـي عـام **1855م**، ظهـر نـوع متطـور مـن الطاعـون يُعـرف بـ «الوبـاء الثالـث»، فـي مقاطعـة

يونـان الصينيـة لينتشـر لاحقـاً إلـى جميـع قـارات العالـم المأهولـة ويـودي بحيـاة **12** مليـون شـخص، وأدى انتشـار وبـاء إنفلونـزا روسـيا، بيـن عامـي **1889 و1890م**، إلـى وفـاة مليـون شـخص، وهـو تقريبـاً نفـس عـدد الوفيـات الـذي تسـببت فيـه الإنفلونـزا الآسـيوية التـي ظهـرت فـي الصيـن فـي **1956م** بينمـا تسـببت الإنفلونـزا الإسـبانية عـام **1918**م فـي وفـاة مـا يقـرب مـن **50** مليـون شـخص فـي عـام واحـد فقـط ويقـال إنهـا قـد أصابـت ربـع سـكان العالـم تقريبـا فـي ذلـك الوقـت.

هـل أصـاب وبـاء مـا تلـك البلـدة المعزولـة فأهلـك أهلهـا وحيواناتهـا وطيورهـا، ربمـا هـذا مـا حـدث، وربمـا كان هـذا تفسـيرا مقبـولا لاختفـاء كل اشـكال الحيـاة الأدميـة والحيوانيـة مـن حولـه. هـل شـعر سـكان البلـدة بالوبـاء، فاغلـق كل واحـد منـه بـاب بيتـه عليـه ليمـوت فـي فراشـه. وربمـا لـم يعلـم بـه أحـد في الدولـة لأن المـرض لـم يتجـاوز حـدود البلـدة.

شـعر بالهلـع، لـو كان الأمـر صحيحـا فهـو فـي خطـر، خطـر الإصابـة بالوبـاء المميـت الـذي ربمـا كان عالقـا بـأي شـيء مـن حولـه.

والخطـر الأخـر الأشـد فزعـا أن يضطـر للحيـاة فـي بلـدة الموتـى تلـك بمفـرده لأسـبوعين كامليـن. أمـر مفـزع يشـبه ان تعيـش داخـل قبـر بجـوار جثـث الموتـى وأشـباحهم.

هـذا المـرة لـم يتمالـك نفسـه، فـدار حـول نفسـه وهـو

يصـرخ:

-هـل مـن أحـد هنـاك. يـا أهـل ديـر النعمـاااان، أيـن أنتـم؟

كررهـا أكثـر مـن مـرة حتـى بـح صوتـه، راحـت قدمـه اليمنـى المصابـة تنبـح بالألـم، ألـم رهيـب أيقظـه الفـزع. ورغـم هـذا اتجـه إلـى أقـرب بـاب أمامـه، وراح يقرعـه بكلتـا يديـه فـي عنـف، ولمـا يـأس اتجـه إلـى بـاب ثـان وثالـث ورابـع وراح يجـرب حظـه دون جـدوى. فـي النهايـة غلبـه اليـأس فتوقـف عـن قـرع البيـوت الصامتـة.

مسـح الدمـوع الخفيفـة التـي انبثقـت مـن عينيـه بكـف يـده ثـم عـاد ليحمـل حقيبتيـه الثقيلتيـن ويواصـل السـير ببـطء هـذه المـرة، وعلـى غيـر هـدى. الطريـق الشـرقي ظـل ممتـدا أمامـه لمسـافة كبيـرة، والشـوارع الجانبيـة التـي كانـت تظهـر بيـن حيـن وآخـر علـى جانبـي الطريـق كانـت قصيـرة فـي أغلبهـا وتنتهـي دومـا ببيـوت تغلـق نهايتهـا. كان الطقـس يفقـد دفئـه وقـد راحـت الريـاح البـاردة تنشـط فـي الشـوارع الخاويـة مـرة أخـرى، فشـعر بالبـرد.

مضـى وقـت لا يـدري كـم هـو حيـن وجـد نفسـه فجـأة فـي مواجهـة بنـاء حجـري مـن طابقيـن مـن الحجـارة كالبيـوت الأخـرى، لكنـه مطلـي بلـون جيـري أبيـض. كان هنـاك سـور يحيـط بالمبنـى وداخلـه ظهـرت رؤوس أشـجار طويلـة كثيفة الأغصـان.

كانـت اليافطـة علـى واجهتـه صغيـرة مكتوبـة بخـط غيـر

منمـق تمامـا.

(الوحدة الصحية)

(بلدة دير النعمان)

توقـف أمامها غيـر مصـدق لمـا يـراه أمامـه، وبخطـوات جـادة دلـف البـاب الخشـبي المفتـوح فصـار داخـل السـور، كانـت هنـاك بضـع مقاعـد خشـبية وضعـت لانتظـار المرضـى غالبـا، بينمـا كانـت أرض الفنـاء مغمـورة بالكثيـر مـن أوراق الشـجر المصفـرة الجافـة. اتجـه مباشـرة نحـو بـاب مفتـوح يقـود إلـى داخـل المبنـي، وضـع حقائبـه أرضـا حيـن بلـغ البـاب وسـار فـي رواق طويـل علـى جانبيـه أكثـر مـن حجـرة مغلقـة الأبـواب.

الحجـرة الأولـى كان مكتـوب عليهـا غرفـة كشـف الرجـال، والثانيـة كانـت مخصصـة للأطفـال، والثالثـة كانـت للنسـاء، ثـم جاء دور الحجـرة الرابعـة وقـد ظهـر فـي قلـب بابهـا نافذة صغيـرة مكتـوب فوقهـا، الصيدليـة، بـدا وكأن مـن قـام ببنـاء المـكان قـد تعمـد تزويـده بـكل الخدمـات المناسـبة لتقديـم خدمـة طبيـة شـاملة، لكـن مـاذا عـن القـوى البشـرية، هـل رأت هـذه الوحـدة الصحيـة أكثـر مـن طبيـب فـي وقـت واحـد، هـل عمـل بهـا صيدلـي مثـلا؟

طـرد تلـك الأفـكار واتجـه إلـى أخـر بـاب فـي مواجهتـه، كان مفتوحـا، وحيـن اقتـرب منـه خرجـت منـه بغتـة سـيدة مـا.

انتفـض فـي فـزع حقيقـي، وهـو الـذي لـم يتوقـع أن يجـد

أحـدا مـا فـي المـكان، ظلـت السـيدة تنظـر إليـه بنظـرات جامـدة، كانـت كمـا يبـدو سـيدة ناضجـة فـي منتصـف الاربعينـات مـن عمرهـا، ذا بنيـة ضخمـة حتـى أن طولهـا تجـاوزه شـخصيا، ووجـه عـادي مائـل للسـمار جـاف التعابيـر. تمالـك فتحـي نفسـه وقـال بارتبـاك معتـذرا:

-معـذرة، لقـد فاجأتنـي، فـي الحقيقـة لـم اتخيـل وجـود شـخص مـا فـي المـكان.

ظلـت ترمقـه بجمـود دون ان تجيبـه، شـعر بعـدم الراحـة مـن نظراتهـا الحـادة البـاردة، ولـم تجبـه عـاد للحديـث فقـال:

-أنـا دكتـور فتحـي عبـد الوهـاب. طبيـب الوحـدة الجديـد. لقـد أرسـلوني مـن القاهـرة إلـى هنـا.

ظلــت ترمقــه لنحــو الثوانــي العشــر قبــل أن تفتــح فمهــا بالحديــث للمــرة الأولــى:

-حجرتك بالأعلى يا دكتور.

كان هـذا أخـر مـا توقعـه، لـم يسـألها عـن حجرتـه، السـؤال الأهـم مـن هـي، ومـاذا تفعـل هنـا؟ نظـر إليهـا فـي حيـرة لبعـض الوقـت، لاحـظ أنهـا لاتـزال ترمقـه بنفـس الجمـود، فـي النهايـة قـرر أن يطـرح عليهـا تسـاؤلاته:

-لم تخبريني من أنت؟

-اسمي عايدة، إنني الممرضة الوحيدة في هذه الوحدة.

كانـت تجيـب فـي آليـة وبجمـود غيـر آدمـي، فـي يـوم مـن

الأيـام شـاهد فـي الـسـينما فيلـم «فرانكشـتين»، كانـت الجثة فــي الفيلــم تتحــدث بنفــس هــذا الجمــود. أدرك أن عليــه التحلــي بالكثيـر مـن الصبـر ليسـهل التعامـل مـع ممرضتـه الوحيـدة تلـك، فقـال فـي هـدوء:

-وهل هناك أحد غيرك يعمل هنا.

-هنـاك كاتـب الوحـدة. يدعـى عبـد النبـي. لكنـه لا يأتـي الأن.

-وماذا عن أهل البلدة، والمرضي. أين هم؟

-لـم يعـد أحدهـم يقصـد الوحـدة، لكـن حيـن يفعلـون لا يأتـون بالنهـار، إنهـم يأتـون ليـلا يـا دكتـور!

❊❊❊

(3)

حتى في النصف الآخر البعيد من الوطن ظلت الكوابيس تطارده وتؤرق نومه، هب من الفراش وهو يلهث، يغمر العرق الغزير جبهته، وقلبه المذعور يخفق في صدره كطائر ذبيح. نظر إلى الظلام الذي تسلل للحجرة الواسعة عبر النافذة الزجاجية الكبيرة وهو يشعر بالحيرة، واحتاج للحظات كي يدرك أين هو وأي حجرة غريبة عنه ينام فيها الآن.

كان في الغرفة المخصصة له في الدور العلوي للوحدة الصحية ببلدة دير النعمان. لقد قادته عايدة إليها وأخبرته أن بإمكانه أن يحظى ببعض الراحة فيها. كان منهكا بشدة حين أتى، ولهذا فقد اكتفى بأن استبدل ملابسه ورقد على الفراش دون أن يفكر في ترتيب أغراضه. وعلى الفور غرق في النعاس.

نهض من الفراش وجلس على حافته شاعرا بصداع عنيف ينبض في رأسه، فرفع أنامله بحركة تلقائية نحو جانبي جبهته وراح يضغط عليها بقوة، وهو يغمض جفنيه ليخفف من شدة الألم. صداعه المعتاد الذي صار رفيقه الدائم مذ عاد من الجبهة قبل عام.

كان قد عاد من جبهة القنال بعد نكسة يونيو، وقد اصطحب معه طعم الهزيمة المرير وحشد مهول من الذكريات المرعبة والكوابيس الشنيعة التي تهاجمه في

كل ليلـة، ومـع كل هـذا بـدأ يعانـي مـن صـداع عنيـف لا يفـارق رأسـه.

أخبـره أحـد أصدقائـه، وكان يعمـل طبيبـا نفسـيا أن هـذا الصـداع نفسـي. واقتـرح عليـه تنـاول بعـض العقاقيـر المهدئـة. تنـاول فتحـي تلـك العقاقيـر لبعـض الوقـت وحيـن أدرك عـدم جدواهـا أهملهـا. قـرر أن يتعايـش مـع الصـداع وأن يعتـاد عليـه، وأن يكتفـي بتنـاول بعـض الأسـبرين كلمـا هاجمتـه نوبـة عنيفـة مـن الألـم.

تحسـس طريقـه فـي الظـلام وهـو يفكـر فـي البحـث عـن مصبـاح الكهربـاء. لمـس الحائـط بالفعـل وهـو يبحـث عنـه، قبـل أن يتذكـر أن البلـدة بأكملهـا لـم يصلهـا خطـوط الكهربـاء بعـد. أخبرتـه عايـدة بهـذا وهـي تشـير إلـى بعـض الشـموع الموجـودة إلـى جـوار الفـراش والتـي تركتهـا لـه كـي يشـعلها لـو اسـتيقظ فـي الظـلام.

أشـعل عـود ثقـاب فبـدت الغرفـة الواسـعة غارقـة فـي ظـلال مبهمـة تثيـر الرجفـة فـي نفسـه. رمـق الفـراش العتيـق. الطاولـة الصغيـرة بجـواره والتـي وضـع عليهـا علبـة وبجوارهـا بضـع ألـواح مـن الشـمع. وفـي الناحيـة الأخـرى من الغرفـة كانـت هنـاك خزانـة خشـبية فوقهـا بضـع صناديـق مـن الـورق المقـوي لا يـدري بعـد مـاذا بداخلهمـا. ثـم انطفـأ عـود ثقابـه.

أشـعل لفافـة تبـغ مفضـلا الظـلام واتجـه إلـى النافـذة الزجاجيـة، ووقـف خلفهـا يراقـب الطقـس الثائـر بالخـارج،

كانـت الأشـجار تتلـوى فـي عنـف، والريـح تعبـث بهـا كمـا تشـاء، بينمـا راحـت الأمطـار تنهمـر مـن السـماء المظلمـة والتـي غـاب القمـر عنهـا، بـلا انقطـاع.

طقس شتوي رديء.

وبينمـا كان ينفـث الدخـان انتبـه إلـى الأشـباح التـي تتحـرك فـي الظـلام مـن بعيـد قادمـة مـن داخـل البلـدة وتتجـه إلـى الوحـدة الصحيـة بـلا شـك. شـعر بالدهشـة، وضيـق مـن عينيـه ليـرى مـن القـادم، لاحـظ كيـف تتحـرك الأشـباح نحـوه فـي ثبـات رغـم الظـلام والريـح والأرض الزلقة والمطـر، كانا فرديـن، يحيطـان بمـا بـدا وكأنـه حمـار متوسـط الارتفـاع وقـد امتطـاه شـبح ثالـث فـي وضـع غيـر مسـتقيم. هـل يكونـون مـن أهـل البلـدة؟ ولمـاذا اختـاروا مثـل هـذا الوقـت السـيء للقـدوم للوحـدة، ولمـاذا لـم يفعلوهـا فـي الصبـاح؟

ثم كان السؤال الأهم. أين كانوا في النهار؟

وعـادت كلمـات عايـدة لتتـردد فـي أذنيـه، وهـو يتذكـر إجابتها عـن سـؤاله عـن اهـل البلـدة، فوجـد جسـده ينتفض.

- لـم يعـد أحدهـم يقصـد الوحـدة، لكـن حيـن يفعلـون لا يأتـون بالنهـار، إنهـم يأتـون ليـلا يـا دكتـور!

كانـت لفافـة تبغـه قـد ذابـت تمامـا فـي تلـك اللحظـة، فـي نفـس الوقـت الـذي دلفـت فيـه الاشـباح القادمـة البـاب الخارجـي للوحـدة الصحيـة وتوقـف الحمـار داخـل السـور، فأسـرع اثنـان منهـم بحمـل الجسـد الراقـد فـوق الحمـار ثـم

غابا عن بصره وقد ابتلعهما مبنى الوحدة الصحية. خمن أنهم يبحثان عنه الأن، وتساءل كيف عرفوا بقدومه رغم أنهم قد أخبروه في القاهرة أن المكان بغير طبيب منذ زمن طويل؟!

ربما أرسلتهم عايدة!

اتجه إلى الطاولة الخشبية وأشعل إحدى الشموع ثم فتح حقيبة ملابسه، وأخرج منها معطفا ثقيلا، ارتداه في هدوء واستعد للهبوط.

خلف باب حجرته وجد رجلا ضئيل الجسد في نحو الخمسين من عمره، يقف صامتا وهو يحمل في يده مصباح نفطي، شهق فتحي في فزع، ثم هتف في الرجل في استنكار:

-من أنت ولماذا تقف هكذا؟

على ضوء المصباح رمقه الرجل الضئيل بعين بليدة صغيرة، ووجه يحمل ملامح جرذ. دون أن يجيب. تبادلا النظر لبضع ثوان ثم عاد فتحي يتكلم في حدة:

- لماذا لا ترد؟

استدار الرجل دون أن يتحدث واتجه إلى السلم الخشبي ليهبط إلى الطابق الأرضي. لم يتبعه فتحي على الفور، وراح يتنفس في سرعة وهو يشعر بعدم الارتياح.

من هذا الرجل؟

خمن أنه قد يكون عبد النبي، كاتب الوحدة الذي لم يره حين أتى وأخبرته عايدة عنه. حتما هو ذلك العامل، لكن لماذا لا يرحب به مثلا أو يجيب على اسئلته. حسم أمره وقرر ان يدع الإجابة عن تلك التساؤلات حتى ينتهي من رؤية هؤلاء القوم المنتظرين بالأسفل. لاحظ ان ضوء المصباح النفطي مازال يضيء الدرج الخشبي فهبط في حذر، تحرك العامل الضئيل فور أن هبط وتقدم نحو الرواق المظلم ثم اختفي داخل أول غرفة في المبنى، كانت غرفة الكشف والملاحظة. تحرك في هدوء نحو الحجرة ليلاحظ تلك الرائحة الشنيعة التي غمرت المكان. همس في تأفف:

-ما تلك الرائحة الرهيبة، وكأن قبرا حديثا قد فتح أبوابه في المكان!

دلف الحجرة فلاحظ الرجلين اللذين يحيطان بالفراش وقد التصقت جلابيبهما بأجسادهما، وتكونت برك من الوحل والماء أسفل منهما، ثم لاحظ أن هناك طفل أخر لا يزيد عمره عن الأعوام العشرة، يقف وسطهما، خمن فتحي أنه لم يلحظه حتما في الظلام لضآلة جسده. كان عبد النبي يقف في جانب من الحجرة ومازال يحمل المصباح، ولاحظ فتحي أن الرائحة الكريهة صارت أكثر قوة وعنفا، فكر بسرعة وهو يتقدم، هل يكون أحدهم يتحلل حيا، أم أن جميعهم لا يعرفون النظافة؟

حاول كتم أنفاسه قدر استطاعته وهو يمني نفسه بالخلاص منهم سريعا، ونظر للشخص الراقد على

الفـراش وسـأل الباقيـن:

-ماذا به؟

كان الرجـل المريـض عجـوزا للغايـة وضامـرا للغاية، أنفاسـه ضعيفـة وعينـاه باهتتيـن غائرتيـن، بينمـا كانـت رائحـة شـنيعة تنبعـث مـع أنفاسـه، هـذا رجـل مصـاب بمرحلـة متأخـرة مـن السـرطان بـلا شـك، رجـل أعضـاءه الداخليـة تتـآكل وتتحلـل. رجـل يحتضـر.

نقـل بصـره للرجـال الثـلاث، مـن حولـه، كانـت وجوههـم جامـدة وإن اشـتركت فـي نفـس الضمـور، لاحـظ أن عيـون الثلاثـة بـلا رمـوش، وأن عيونهـم جميعـا جامـدة بليـدة، تماما كعينـي عبـد النبـي. اقشـعر جلـده وهـو يلحـظ لـون جلدهـم المائـل للزرقـة، لـون غيـر صحـي أبـدا. كانـوا يرمقونـه فـي صمـت تـام. صمـت مخيـف. وجـد نفسـه يعيـد السـؤال وهـو يحـاول التماسـك:

-ماذا يشكو؟

هنـا جاءتـه الإجابـة مـن فـم الطفـل، الـذي قـال لـه بصـوت رتيـب بـارد:

-اهتم به وعالجه يا دكتور.

نظـر إلـى الطفـل فـي دهشـة، وشـعر بشـيء غيـر طبيعـي فيـه هـو الآخـر، أسـلوب حديثـه المتصلـب ذكـره ب عايـدة، هـل تلـك هـي الطريقـة التـي اعتـادوا فـي هـذا المـكان التحـدث بهـا؟ ربمـا!

جاهد كي يبتسم في وجه الطفل، وهو يقول:

- ليس قبل أن تخبروني بقصته المرضية وماذا يشكو؟

أشار الطفل نحو الجسد المسجى في هدوء وأجاب:

-عليك ألا تدعه يموت.

مغالبا توتره اقترب من المريض. لاحظ وجود سماعة طبية وجهاز ضغط زئبقي على طاولة بجوار فراشه، ارتدى السماعة وبدأ يفحصه، شعر بالنفور من ملمس جلد الرجل البارد. ملمس ذكره بالجثث المحفوظة في الثلاجات.

ورغم خبرته القليلة الا أن الأمور كانت واضحة.

نبض ضعيف، ضغط دم منخفض، وأنفاس غير منتظمة، وجسد بارد.

هذا رجل يحتضر.

أراد أن يخبرهم ألا جدوى، لكنه لسبب ما كان يشعر بالخوف منهم. لذا غمغم محاولا ألا ينظر لوجوههم الجامدة قائلا:

-أعتقد أنه بحاجة لبعض المحاليل المغذية لتنشيط دورته الدموية. سأرى إن كان في المكان شيء كهذا.

لم يترك حديثه أي أثر في وجوه الرجال الثلاثة، ظلوا صامتين وهم يرمقون الجسد المسجى في ثبات، لكن

الطفـل كالعـادة هـو الـذي أجابـه:

-أبقـه حيـا. إنهمـا يومـان فقـط مـا يحتاجـه، وسـوف نأتـي لنأخـذه فـي اليـوم الثالـث. لكـن لا تدعـه يمـوت قبلهـا.

وبغيـر كلمـة غـادر الرجـلان والطفـل المـكان، تاركيـن خلفهـم عجـوز يمـوت وطبيـب حائـر مرعـوب.

***

(4)

حاول فتحي تجاهل الرائحة العفنة المنبعثة من العجوز المحتضر بلا جدوى، حتى أنه فشل في العثور على قناة وريدية مرتين، أصابعه كانت ترتجف وهو ما أوعزه لشعوره بالنفور من الرجل. شاهد الدماء المنبثقة في دفقات متقطعة واهنة من ذراع العجوز الضامر جراء محاولاته الفاشلة لإدخال الابرة في أوردة الرجل لضخ بعض المحاليل في جسده.

كانت دماء سوداء لا أثر للون الأحمر بها، دماء بعثت معها المزيد من رائحة التحلل الشنيعة. لم يتحرك عبد النبي من مكانه ولم يفكر في مساعدته. فقط ظل واقفا في ركن الحجرة ممسكا بالمصباح الزيتي في صمت وجمود، دون أن يبدو على وجهه التأفف من الرائحة.

بدا وكأنما اعتاد عليها.

غالب فتحي نفوره واشمئزازه، وقرب نظره من ذراع مريضه الصامت، وهو يتحسسه بأطراف أنامله بحثا عن الوريد. جلد العجوز كان باردا كالموتى، إنه لأعجوبة حقيقية أن يظل هذا العجوز حيا حتى الأن. هذه المرة نجح، وبارتياح كبير راح يراقب السائل في الأنبوب والذي بدأ يتحرك نحو جسد الرجل في سرعة.

انتبه في تلك اللحظة أنه قد صار بمفرده في الغرفة، فقط كان المصباح معلقا في قائم بجوار الحائط، لكن

عبد النبي كان قد اختفى، تحرك نحو باب الغرفة، وأطل برأسه من الباب مطالعا الظلام المطبق على المكان، لم يرى أي أثر لكاتب الوحدة الصامت في أي مكان، فهتف في قوة:

-عبد النبي، هل أنت هناك؟

تردد الصدى بين الجدران برنين عجيب، كان الصدى لحوح، مريب، موجس. وللحظة شك فتحي أن هناك من يردد كلماته من قلب الظلام، لتبدو كصدى لما قاله.

- هنااااااك.

مغمورا بالتوتر والترقب، عاد للحجرة ليراقب العجوز، كان وجه العجوز على نفس جموده، وصدره يرتفع وينخفض في حركة ضعيفة، انتهى المحلول الأول فأبدله بمحلول ملحي آخر، وقد خمن أن العجوز يعاني من أعراض جفاف شديد، وأنه قد يحتاج لأكثر من زجاجتين في هذه الليلة، بل وربما لبعض الدماء كذلك. لكن من أين يأتي بأكياس الدماء في مكان ناء كهذا؟

من العجيب أنه وجد مخزونا ضخما من المحاليل في الدولاب المصنوع من الألمونيوم بالغرفة، شعر بالدهشة، فحتى في قلب القاهرة من العسير أن تجد مثل تلك الكمية في مخزن مستشفى كبير. فكل الأدوية والمحاليل في تلك الفترة كانت مخصصة للمجهود الحربي، مخصصة للجيش العظيم الذي تحرك في نهاية شهر مايو مختالا في شوارع القاهرة في حشود لا نهاية

لها، من المدرعات والعربات المجنزرة والدبابات الثقيلة وناقلات الجنود، بينما احتشدت الجماهير في الشوارع وشرفات النوافذ وهي تلقي عليهم الورود والأزهار وتهتف لهم في جنون ونشوة.

هذا جيش التحرير، الجيش الذي سوف يقضى على إسرائيل للأبد كما وعد الزعيم، وكما تعد الإذاعة والتليفزيون وكما تعد أم كلثوم وعبد الحليم حافظ في اناشيدهما وأغانيهما.

لكن الجيش لم يحارب، وانهزم قبل أن تبدأ الحرب. ليس لقلة بأس رجاله، بل لفساد قادته.

كانت هزيمة يونيو مؤلمة، وعادت فلول الجيش بعد يونيو لتعبر نفس الشوارع في انكسار وضعف والجماهير ترمقها في استياء وغضب وسخرية مقيتة.

بالفعل كم كانت هزيمة يونيو مذلة موجعة لعينة.

ونفض رأسه ليطرد تلك الذكريات المخيفة منها، وقد عاد الصداع ليفترس عقله، بينما نبض الألم ثانية في ساقه ليذكره أنه كان هناك. كان في سيناء، وأن تلك الشظية التي سكنت فخذه شاهدة على ذلك.

انتهى المحلول الثاني في نحو الدقائق العشر. ففحص فتحي المريض. لم يبد عليه أثر للتحسن. بدا على نفس جموده. تذكر تحذير الطفل الذي جاء برفقة المريض والرجال.

- أبقه حيا. إنهما يومان فقط ما يحتاجه، وسوف نأتي لنأخذه في اليوم الثالث. لكن لا تدعه يمت قبلها.

ابتسم وهو يستبدل المحلول الثاني بآخر، وهو يغمغم في سره:

-لقد انتهى زمن المعجزات يا فتى، والمعجزة الحقيقة أن تشرق الشمس وهذا العجوز ما زال حيا. لقد فات وقت العلاج منذ وقت طويل لو كنت تدري.

 خمن أن الرجل يعاني من أورام سرطانية في مرحلة متقدمة وقد انتشرت الثانويات في كل جسده. كان الرجل بحاجة لفحوصات مختبرية وفحص إشعاعي، وخبير بعلاج مثل تلك الحالات.

كل هذا غير موجود، هنا فقط طبيب شاب حديث التخرج قليل الخبرة، ووحدة صحية لا تعد بالكثير.

رمقه لمرة أخيرة، ثم قرر أن هذا أكثر ما يمكن أن يقدمه له، في مكان كهذا. دثره بغطاء ثقيل ثم صعد لغرفته مصطحبا المصباح الوحيد في المكان معه. لن يفيد الضوء هذا المريض، لكنه كان بحاجة له. يحتاج لأن يرتب أغراضه، يحتاج لأن يخرج علب الأغذية المحفوظة من حقيبته، ففي تلك اللحظة عادت أحشاءه للتقلص مذكرة إياه بالجوع.

في الظلام بدت الوحدة الصحية موحشة للغاية، غمره ذلك الشعور البدائي المبهم بالخوف من الظلام وما قد

يتـوارى فيـه. صعـد السـلم الخشـبي وهـو يحـاول ألا يصـدر حـذاؤه أي صـوت، وكأنمـا يخشـى أن تسـتيقظ العفاريـت والجـان لـو سـمعت صـوت خطواتـه، تمامـا كمـا اعتـاد أن يفعـل وهـو صغيـر، حيـن كانـت مثانتـه تمتلـئ بالبـول فـي منتصـف الليـل ويرفـض أخـوه الأكبـر الاسـتيقاظ لمرافقتـه للحمـام.

وقتهـا لـم يكـن أمامـه إلا أن يعـدو مـن غرفـة نومـه للحمـام عبـر الصالـة واهنـة الضـوء، محـاذرا أن يصدر عنـه أي صوت. كان يخشـى أن تسـتيقظ العفاريـت الرابضـة خلـف السـتائر أو داخـل الخزانـة أو أسـفل الكنـب الكبيـر فـي الصالـة مـع صـوت أقدامـه، وكـم مـن مـرة أغـرق سـرواله بالبـول وهـو يتعجـل افـراغ المثانـة فـي الحمـام حيـن كان يـدب فـي المـكان صـوت مفاجـئ.

دخـل حجرتـه وأحكـم إغـلاق بابهـا مـن خلفـه، مثلمـا كان يفعـل حيـن يشـعر بالخـوف وهـو صغيـر. وكأن هـذا البـاب المغلـق سـوف يمنـع عنـه الوحـوش والأشـباح والعفاريـت. وضـع المصبـاح علـى الطاولـة ليـرى أن هنـاك صينيـة مليئـة بالطعـام فـوق فراشـه، وعليهـا أرز ونصـف دجاجـة مسـلوقة وخضـار مطبـوخ وخبـز وزيتـون.

هل جلبها عبد النبي من أجله؟

لكن متى فعل؟

ربمـا فعلهـا حيـن اختفـى مـن أمـام الحجـرة وهـو منهمـك فـي عـلاج مريضـه، كان الجـوع يقرصـه فنفـض تلـك الأفكار

من رأسه وانهمك في تناول الطعام.

انتهى من الطعام وأشعل سيجارة وتحرك نحو النافذة وهو يدخن، السماء لا زالت تمطر والرياح تصفر بالخارج وهي تضرب الجدران والأشجار في عنف والظلام بدا في تلك اللحظة بدائي مخيف. جو مخيف مقبض أكثر مما عاشه من قبل في الصحراء حين كان في الجيش، فمهما كانت مخاوفه كان هناك برفقة الجنود الآخرين، أما هنا فهو في بناء مظلم سيعيش فيه لوحده وفي الطابق السفلي منه يرقد عجوز غامض يحتضر، ويا لها من رفقة.

انتهت السيجارة فبدلها بأخرى، كان هذا حين انتبه إلى تلك الأصوات التي تعوي بالخارج، أرهف السمع ليتأكد من تلك الأصوات وسط صخب الرياح والأمطار. وحين دقق النظر انتبه على صف من أشباح حيوانات تحيط بمبنى الوحدة الصحية من خارج السور في نصف دائرة وهي ترفع عقيرتها للسماء وتعوي في وقت واحد.

حاول تعرف كنه تلك الأشباح المتسربلة بالظلام وقلبه يرتجف، هل هي كلاب أم ذئاب؟ أم أنها أشياء أخرى لا يتمنى أن يعرف حقيقتها؟

لا يدري.

أكثر ما أفزعه هو تلك الوقفة المريبة لتلك الحيوانات. شعر وكأنها تستهدف المكان بعوائها. بدا وكأنها لا تهتم بالطقس العاصف الممطر من حولها. ثم ألح على عقله

خاطر غريب. ماذا لو هاجمت تلك الحيوانات المبنى؟

لن تصل إليه حتما. فجدران المبنى كله من الصخر وباب حجرته كما يرى قوى للغاية، ولن يسمح لتلك الحيوانات باختراقه. إنه إذا في مأمن منها.

لكن ماذا عن مريضه بالأسفل؟

تذكر أنه لم يتأكد إن كان باب الوحدة الصحي الخارجي موصدا أم لا، قبل أن يصعد لحجرته. لقد خمن أن عبدالنبي قد أغلقه من خلفه، لكن ماذا لو لم يفعل؟

ماذا لو اقتحمت تلك الحيوانات التي تلمع عيونها في الظلام المكان وهاجمت المريض العاجز ونهشت جسده. فكرة مرعبة، فكر أن من واجبه أن يهبط ليتأكد من إغلاق الباب، لكن دافعا خفيا في عقله دفعه ألا يفعل.

مضت نحو العشر دقائق وهو في مكانه خلف النافذة وهو يراقب أشباح الحيوانات التي ظلت تعوي. وحين ضرب لسان من البرق صفحة السماء المظلمة رأي الأشباح الآخرين المستترين في الظلام خلف أشباح الحيوانات.

أكثر من صف من أشباح رجال ونساء تقف في الظلام والبرد والمطر وهي تحيط بمبنى الوحدة الصحية في جمود. انتفض في عنف وهو لا يدري ما يحدث. من هؤلاء وماذا يفعلون بالخارج.

ومع شعوره بالفزع. كان يشعر أن شيئا شريرا يحدث.

راحـت سـاقاه ترتعشـان، لكنـه لـم يفـارق مكانـه، وحيـن عـاد البـرق ثانيـة ليضـيء المـكان، رأي أن صفـوف الأشـباح البشـرية صـارت ملاصقـة لصف الحيوانـات. وفـي وقـت واحد راحـت الأشـباح البشـرية تعـوي فـي صـوت واحـد مخيـف. صـوت حـاد لـه وقـع غيـر آدمـي. تعـوي وكأنهـا تـردد أناشـيد وثنيـة قديمـة.

فكـر فـي أن يفتـح النافـذة وأن يصـرخ فيهـم أن يبتعـدوا، أن يسـألهم مـاذا يريـدون منـه. لكنـه لـم يجـرؤ. كان خائفـا. كان يرتعـش. ثـم حانـت منـه التفاتـة للأسـفل حيـن سـطع البـرق للمـرة الثالثـة. وهنـاك وبداخـل الحديقـة رأى الرجـل المريـض واقفـا فـي الظـلام ووجهـه مصـوب للحشـود بالخـارج. لـم يبـد علـى هيئتـه المـرض فـي تلـك اللحظـة، وبعيـون جاحظـة أدرك فتحـي أن المريـض يعـوي هـو الأخـر ويشـارك رفاقـه أنشـودتهم الغامضـة.

مـا يحـدث كان كابوسـا ثقيـلا مخيفـا. تراجـع فتحـي لداخـل الغرفـة، ثـم تكـوم حـول نفسـه فـي الفـراش وغطـى وجهـه بالغطـاء الصوفـي الخشـن وكأن هـذا سـيبعد عنـه شـياطين العالـم كلـه، وبـدأ جسـده ينتفـض، مضـت نحـو سـاعة كاملة مـن الترقـب والرعـب قبـل أن تختفـي الأصـوات القادمـة مـن الخـارج كلهـا مـرة واحـدة ليسـود المـكان صمـت رهيـب. توقـف المطـر وسـكنت الريـاح تمامـا وتوقـف العـواء والإنشـاد. لكـن الفـزع رغـم هـذا لـم يفارقـه. ظـل جسـده يرتجـف، وعشـرات الأوهـام المرعبـة تمـرح فـي عقلـه.

أي اسـتقبال لعيـن هـذا تسـتقبله بـه تلـك البلـدة الملعونـة،

ومـن هـؤلاء، ولمـاذا تجمعـوا حـول الوحـدة الصحيـة بالـذات؟ هـل هـم سـكان أهـل البلـدة، أم أنهـم أشـباح موتـى؟ وهـل أتـوا مـن أجلـه أم جذبهـم للمـكان ذلـك المريـض العجـوز المحتضـر؟

مهمـا كانـت إجابـة تلـك الأسـئلة فالمـكان ملعـون، وأخـر مـا قـد يفكـر فيـه هـو ان يسـتمر فيـه، سـيرى إن كانـت هنـاك وسـيلة مـا تبعـده عـن المـكان إلـى أي مـكان مأهـول قريـب. تذكـر نصيحـة السـائق العجـوز، ناصـر البربـري، وفـي تلـك اللحظـة تمنـى لـو كان قـد أطاعـه وعـاد معـه للمدينـة ثانيـة.

(5)

سقط ضوء الصباح على عينيه فهب من الفراش في فزع مرة واحدة كالملسوع، وهو يتلفت حوله في خوف، ثم سكن خوفه حين وجد أنه مازال بحجرته، وأن الصباح قد أتى ولا خطر هناك. رمق الحجرة التي لم يعتدها بعد، وصينية طعام الأمس التي وضعها في أحد الأركان، ثم عاد ليجلس على طرف فراشه وهو يلهث، وكأنه كان في سباق مميت. ومرة واحدة وكأنما ينشأ من العدم، ظهر الصداع المعتاد الذي راح يمزق خلايا عقله الرمادية.

بدت له أحداث الليلة الماضية في تلك اللحظة كذكرى بعيدة تخص أحد غيره، كابوس مرعب من المستحيل أن يحدث في هذا العالم الواقعي الذي ينتمي له.

تمنى أن يكون محقا، وأن يكون ما رآه خارج المكان حلم تخيله. ثم وكأنما جلبت الذكرى المخيفة الألم، أغمض عينيه في اللحظة نفسها، في وجع وومضة من الصداع التي لا تحتمل تشق خلايا عقله وهي تتحرك من الجانب الأيمن للأيسر. استمرت النوبة لنحو الثانيتين فقط، لكن وككل مرة تصاعد الحمض في حلقه وغثيان عنيف يكتنفه.

لكن خاطرا آخرا طاف بعقله في تلك اللحظة، هل عاد لهلوساته ورؤاه المخيفة؟

حين عاد من الجبهة وقبل إنهاء خدمته في الجيش

بعـد إصابتـه التـي سـببت لـه إعاقـة دائمـة فـي سـاقه، بـدأت الاشـباح تظهـر طـوال الوقـت أمـام عينيـه. أشـباح رفـاق الجبهـة. رفاقـه الموتـى. ابراهيـم التهامـي وسـعيد المسـيري، وغريـب الطويـل، وجـورج مـلاك، والرائـد محمـد شـريف، وباقـي الرفـاق.

كان يراهـم حولـه فـي كل مـكان، فـي النهـار والليـل، يراهـم حولـه وهـو يتنـاول الطعـام، يسـيرون بجـواره فـي الشـارع، يجلسـون حولـه فـي المقهـى، ويحيطـون بفراشـه ويطوفـون بجـدران حجرتـه فـي المسـاء. ينظـرون إليـه وهـم صامتـون عابسـون، يقذفـوه أحيانـا بنظـرات كلهـا لـوم، وكأنهـم يسـألونه لمـاذا كان الوحيـد الـذي لـم يمـت.

كان يراهـم وأجسـادهم سـليمة حينـا، وأحيانـا أخـرى يراهـم وأجسـادهم ممزقـة الأشـلاء تسـيل منهـا الدمـاء. وكانـت أكثـر اللحظـات حيـن يسـتيقظ مـن الكوابيـس التـي تأتيـه كل ليلـة ليجـد أحـد أشـباح الرفـاق فـي مواجهـة وجهـه وهـو يراقبـه فـي الظـلام فـي صمـت.

الغريـب أنـه منـذ جـاء هـذه البلـدة لـم يـرى أي مـن تلـك الأشـباح، والأكثـر غرابـة أنـه لـم يـر كابوسـا واحـدا. حتـى مـع أحـداث الليـل الرهيبـة نـام نومـا هادئـا.

تنـاول علبـة الـدواء وقـذف فـي فمـه حبتيـن مـن الأسـبرين وهـو يتمنـى ألا تسـبب لـه قرحـة أو نزفـا بالمعـدة وهـو يتناولهـا دون طعـام، ثـم أشـعل سـيجارة أخـرى، وهـو يجـول بعينيـه فـي الحجـرة، توقفـت عينـاه عنـد الكراتيـن الورقيـة

فـوق الخزانـة، والتـي خمـن أنهـا تعـود لذلـك الطبيـب الـذي كان هنـا قبلـه، بـل وربمـا كانـت تخـص طبيبـا آخـرا أقـدم مـن سـابقه.

ما الذي تحويه؟

تحـرك نحوهـا وبجهـد أنـزل الصنـدوق الورقـي الأول، كان مغطـى بالغبـار الكثيـف، فسـعل فتحـي وهـو ينفضـه بكـف يـده.. هـذا الغبـار يعنـي حتمـا أن أحـدا لـم يقربهـا كمـا يبـدو منـذ شـهور. بداخـل الصنـدوق كانـت هنـاك عشـرات الكتـب والمجلـدات، وبعينيـن متسـعتين شـغفا وانبهـارا راح يخـرج أكـوام الكتـب وهـو يطالـع أغلفتهـا فـي غيـر تصديـق.

كانـت القـراءة هواياتـه الوحيـدة تقريبـا، وقـد حـرص علـى جلـب عشـرات الكتـب معـه ليتسـلى بقراءتهـا في هـذا المكان النائـي، وهـا هـو الآن يعثـر علـى كنـز مماثـل. كانـت فـي أغلبهـا روايـات لكبـار الكتـاب، عـودة الـروح لتوفيـق الحكيـم، خـان الخليلـي لنجيـب محفـوظ، الأيـام لطـه حسـين، والكثيـر مـن كتـب العقـاد والكثيـر مـن أعـداد مجلـة الهـلال. نسـى الوقـت وهـو يخـرج كل الكتـب مـن الكرتونـة، وينظفهـا فـي حـرص مـن الغبـار، وحيـن انتهـى كانـت ملابسـه متربـة للغايـة، وقـد رص الكتـب بجـوار الجـدار واحصاهـا فكانـت نحـو سـبعين كتابـا وروايـة غيـر أعـداد المجلـة.

كنز حقيقي.

رفـع رأسـه نحـو الخزانـة ونظـر للصندوقيـن الباقييـن وهـو يمنـي نفسـه بالمزيـد مـن الكتـب داخلهـا، وفكـر فـي إنـزال

الصناديق والنظر إلى ما داخلها، لكنه نظر لساعته التي أشارت لنحو العاشرة، فقرر أن يؤجل هذا لفترة ما بعد الظهيرة. عليه أن يهبط للطابق السفلي ليرى إن كان هناك مرضى بانتظاره. ثم تذكر مريض الأمس. فابتلع ريقه في قلق وهو يتمنى لو كان بإمكانه تجاهله. لكن هذا كان مستحيلا. ماذا لو ازداد المرض حدة وكان بحاجة إليه. من واجبه أن يراه، حتى لو كانت رائحته تزعجه، أو كان منظره يخيفه.

بدل ملابسه وفتح باب الحجرة ليجد صينية طعام أخرى تحوي بعض قطع الجبن والخبز الطازج والبيض المسلوق. ابتسم في تلذذ مستمتعا بالطعام الذي لم يتعب في تجهيزه، وراح يتساءل وهو يتناوله، هل يدوم مثل هذا التدليل ويجلبون له الطعام في كل يوم، أم أنها تلك الأيام الأولى فقط وأن عليه بعدها أن يعد طعامه بنفسه.

انتهى من تناول الإفطار وبدل ملابسه ثم هبط.

كان المكان في الطابق السفلي صامتا كقبر، مر بالحجرات المغلقة فلم ير أي أحد، لا مرضى ولا عايدة ولا عبد النبي، وما أن اقترب من حجرة الملاحظة حتى استقبلته الرائحة العفنة مرة أخرى لتنفي أن ما حدث بالليل كان وهما أو حلما.

اتجه بتوتر نحوها ليرى المريض المحتضر. المريض الذي خرج إلى العراء في الظلام حيث العاصفة والمطر

وراح يشـارك رفاقـه عواءهـم الغريـب.

كانـت عايـدة هنـاك. تنظـف الغرفـة، بينمـا المريـض علـى الفـراش سـاكن كالموتـى، فقـط تلـك الحركـة الخفيفـة مـن صـدره هـي مـا تشـير لكونـه لازال حيـا. متوتـرا مـن ذكـرى الليـل تطلـع إليـه فتحـي مـن بعيـد. شـعر بالنفـور منـه وزادت تلـك الرائحـة المنبعثـة مـن جسـده مـن نفـوره. نظـر إلـى عايـدة التـي لـم تلتفـت إليـه، وقـال:

-صباح الخير.

لـم تـرد. فقـط هـزت رأسـها بإيمـاءة خفيفـة. بـدت وكأنهـا لا تعبـأ بوجـوده.

-كيف حاله؟

سألها وهو يتحسس نبض ذراعه الايمن.

-يمكنـك أن تخبرنـي، إنـه لا يتحـدث ولا يبـدو أنـه يشـعر بمـا يـدور حولـه أو حتـى أيـن يكـون.

-لقـد جـاءوا بـه بالأمـس، حقنتـه ببعـض المحاليـل المغذيـة، تمنيـت وقتهـا لـو أخبـر ذويـه أن الأمـل ضعيـف لكنهـم تركـوه وذهبـوا.

-سيعودون له مرة أخرى.

قالتهـا باقتضـاب، وضـع السـماعات علـى صـدره وراح يصغـي لصـوت الدقـات الضعيفـة، ثـم قـال:

- هل تعرفين من يكون؟

- إنه أحد سكان البلدة، ظننت أن هذا واضحا يا دكتور.

- وأنـت مـن البلـدة ولهـذا أتوقـع أنـك تعلميـن مـن يكـون. أليـس كذلـك؟

رمقتـه فـي صمـت، رأي بعـض اللامبـالاة فـي عينيهـا ممزوجـة بمقـت غريـب، هـذه المـرأة لا ترحـب بوجـوده. لكنهـا قالـت فـي النهايـة.

- اسـمه الحـاج جمعـة وينادونـه ب «أبـي خالـد». إنـه واحـد مـن الأعيـان ولديـة الكثيـر مـن مـزارع التيـن ومئـات الماشـية والأغنام.

- لكن حالته متأخرة للغاية، في الواقع إنه يحتضر.

هـذه المـرة التفـت نحـوه، ولدهشـته رأي بعـض التوتـر ولمحـة مـن الخـوف تعكـر صفـو وجههـا الجامـد، اختلجـت شـفتاها وبـدا وكأنهـا تحـاول قـول شـيء مـا، ثـم سـرعان مـا تمنـع نفسـها. لكنهـا قالـت فـي النهايـة بصـوت مبحـوح:

- من الأفضل ألا تدعه للموت يا دكتور.

- هل هذا تهديد؟

- لمـاذا تعتقـد هـذا. قـد تكـون نصيحـة، والأن دعنـي أواصـل عملـي.

قالتهـا وغـادرت الغرفـة كلهـا وكأنهـا تهـرب منـه، راح لبعـض

الوقت يفكر في قولها، نفس التهديد الذي أطلقه الصبي الصغير:

- لا تدعه يموت

وكأن الأمر في يده، وكأن الطب يصنع المعجزات ويحيي الموتى. نظر للعجوز المحتضر، ولاحظ الضمور الهائل في ذراعيه وساقيه، ما تبقى فيهما لا يزيد عن طبقة من الجلد المترهل اليابس وأسفلها العظام. في أي وقت آخر كان ليقسم أن مريضا كهذا لن يقدر على تحريك إصبع واحد في جسده، لكنه رآه ليلة أمس وهو يقف على قدميه في ثبات رغم الريح والمطر، بل وقد كان يعوي كذلك.

كتم أنفاسه وهو ينحني نحوه ليمنع الرائحة الخانقة المنبعثة من الجسد المتآكل من النفاذ لأنفه، حرك الذراعين فكانا متيبسين للغاية، جرب تحريك القدمين فلم تستجيبا له، لقد ضمرت العضلات وذابت الأربطة وتخشبت تماما، هذا رجل قعيد منذ زمن طويل. إذا لا يوجد تفسير لرؤيته بالأمس إلا شيئين:

الأول أنه كان يتوهم، وهذا محتمل.

والثاني كان خاطرا مخيفا. هذا الرجل ممسوس.

اقشعر جلده، ووجد نفسه يقترب من رأس الرجل ويهمس:

-هل يمكنك سماعي؟ هل يمكنك أن تخبرني بما

تشعر به؟

ثم مضت لحظة من الترقب، وجاءت الإجابة. لم يفتح الرجل فمه ليجيب، بل فتح عينيه معا مرة واحدة.

وصرخ فتحي في فزع حقيقي وهو يتراجع للخلف ليصطدم بحامل المحاليل ويسقط معه.

فبدلا من أن يرى عيني الرجل كان هناك تجويفان مظلمان ممتلئان بالدود الحي!

***

(6)

جذبت صرختـه عايـدة التـي أتـت للغرفـة مسـرعة، لكنهـا لـم تكـن بمفردهـا، كانـت هنـاك امـرأة أخـرى خلفهـا لـم ينتبـه لهـا فتحـي رغـم أنهـا قالـت:

-ما الذي يحدث هنا.

لـم ينتبـه لهـا فتحـي فـي البدايـة، وأشـار نحـو العجـوز وهـو يصـرخ:

-عينـاه، هنـاك الكثيـر مـن الـدود بداخلهمـا. هـذا بشـع. بشـع للغايـة.

بينمـا تحركـت عايـدة فـي ثبـات نحـو فـراش الرجـل وانحنـت نحـوه، كـاد فتحـي أن يصـرخ فيهـا ألا تقتـرب منـه أو تلمسـه، لكنهـا فتحـت مقلتيـه ونظـرت فيهمـا للحظـة قبـل أن تسـتدير نحـوه وتقـول:

-لا وجـود للـدود ولا أي شـيء آخـر غريـب. عينـاه فـي مكانهمـا يـا دكتـور. ربمـا توهمـت هـذا؟

-كلا، كانتا متآكلتين وفيهما الدود.

-يمكنك أن ترى بنفسك طالما لا تصدق.

نظـر فتحـي حولـه فـي اضطـراب، بينمـا انحنـت عايـدة نحـو حامـل المحاليـل لترفعـه عـن الأرض، وجـد يـدا رقيقـة رشـيقة تجذبـه مـن ذراعـه وتعاونـه علـى النهـوض. رمقهـا

فـي حيـرة قبـل أن ينتبـه لهـا. ورغـم توتـره اتسـعت عينـاه فـي ذهـول، كانـت شـابة غيـر مصريـة. أوربيـة أو أمريكيـة كمـا يبـدو جليـا فـي ملامحهـا. قـوام رفيـع وعيـون زرقـاء وشـعر ذهبـي أشـقر. وابتسـامة عذبـة تكشـف عـن صفيـن مـن أسـنان نضيـدة لامعـة كاللؤلـؤ.

مدت ذراعها، نحوه وكأنها ترحب به وقالت:

- اسمي سارة بيندكت، ولابد أنك الطبيب الجديد هنا.

قالتهـا بعربيـة سـليمة وإن شـابتها لكنـة غريبـة، كانـت تتحـدث كالأجانـب الذيـن عاشـوا فـي البلـد أعوامـا طويلـة وتعلمـوا العربيـة فيهـا. تطلـع فتحـي إلـى الـذراع الممتـدة نحـوه فـي حيـرة وكأنـه لا يعـرف كيف يجيـب عليها، فاتسـعت ابتسـامتها العذبـة وهـي تقـول:

-ألن ترحب بي؟

وكأنمـا جذبتـه كلماتهـا مـن حيرتـه فأسـرع يصافحهـا وهـو يقـول:

-أنا الدكتور فتحي عبد الوهاب، طبيب الوحدة الجديد.

قبضت على كفه بقوة وهي تقول:

-والآن أخبرنـي يـا دكتـور عبـد الوهـاب، مـا الـذي أفزعـك. لقـد كنـت تصـرخ بينمـا كنـت أدخـل.

كانـت تناديـه بنفـس الطريقـة الغريبـة، باسـم ابيـه أو عائلتـه كمـا تعتقـد. ابتلـع ريقـه وقـد عـاد منظـر المقلتيـن

الفارغتيـن الممتلئتيـن بالـدود اللـزج يمـلأ مخيلتـه، فسـحب كفـه مـن يدهـا بتوتـر واتجـه نحـو العجـوز الراقـد وبيـد مرتعشـة فتـح مقتليـه، هـذه المـرة لـم يـر غيـر عينيـن باهتتيـن بـلا بريـق وقـد غشـيتهما سـحابة بيضـاء. لـم يكـن هنـاك فجـوات فارغـة ولا دود يمـرح فيهـا. فهـز رأسـه فـي قـوة وكأنمـا يفـرغ توتـره ثـم قـال:

-لا شيء. يبدو أنني متعب بعض الشيء.

كانـت عايـدة تقـف فـي ركـن الحجـرة منتصبـة فـي جمـود كتمثـال وثنـي قديـم، بينمـا تحركـت سـارة نحـو الفـراش وانحنـت نحـو العجـوز المحتضـر دون أن يبـدو عليهـا التأفـف مـن رائحتـه الخانقـة، وراحـت تمسـد وجنتيـه وشـعره بأناملها الرقيقـة وهـي تـردد:

-يـا للمسـكين البائـس، أنـت لا تعرفـة يـا دكتـور. إنـه رجـل صالـح، جمعـة العجـوز الطيـب. طالمـا دعانـي فـي بيتـه، وطالمـا قـص لـي حكايـات المـكان وتاريخـه. لكـن المـرض اللعيـن أتـى بغتـه وسـرعان مـا فتـك بجسـده كمـا تـرى. أنـا هنـا لزيارتـه، أنـا هنـا لأصلـي مـن أجلـه.

راقبهـا فتحـي فـي دهشـة وقـد ركعـت بجـوار الفـراش، وضمـت كفيهـا أمـام وجههـا وأغمضـت عينيهـا وراحـت تمتـم بشـفتيها صـلاة غامضـة. مضـت نحـو الدقيقـة مـن الصمـت المطبـق، راقبهـا فتحـي فـي دهشـة اسـتحالت لاضطـراب عنيـف حيـن انتبـه لنظـرات عايـدة الزائغـة التـي ترمـق بهـا سـارة. رأى خـوف مبهـم يلـوح فـي خلجاتهـا. خـوف شـديد أو

شـيء أخـر. كـره كبيـرا!

انتهـت سـارة ثـم نهضـت وانحنـت نحـو جبهـة جمعـة وقبلتها ببسـاطة وقالـت:

- ستكون بخير يا جمعة. أعدك بهذا.

وكالمعجـزة فتـح الرجـل المحتضـر عينيـه وقـد عـاد لهمـا بعـض البريـق، وعلـى وجهـه ارتسـمت ابتسـامة شـاحبة، ابتسـامة جعلـت قلـب فتحـي يثـب فـي صـدره متوتـرا. بينما التفتـت سـارة إلـى فتحـي وقالـت:

- افعـل كل شـيء تقـدر عليـه لتحافـظ علـى حياتـه يـا دكتـور عبـد الوهـاب، افعلهـا مـن أجلـي أرجـوك. حافـظ علـى حياتـه ليوميـن آخريـن فقـط.

وجـد نفسـه يقـول فـي توجـس وهـو يرمـق وجـه الرجـل الـذي أغلـق عينيـه مـرة أخـرى وقـد تلاشـت أثـر الابتسـامة مـن وجهـه:

-ولماذا ليومين فقط؟ ماذا قد يحدث بعدهما؟

قالهـا وقـد تذكـر حديـث الصبـي. فاقتربـت منـه حتـى كادت أن تلتصـق بـه وقـد بـدد عطرهـا الحلـو الكثيـر مـن رائحـة الرجـل المحتضـر وقالـت:

-لـم أقصـد مـدة محـددة، يبـدو أننـي أسـأت التعبيـر، فقـط حافـظ عليـه لأطـول وقـت ممكن.

يحافظ على ماذا؟ رجل محتضر؟!

بـدت اجابتها غامضـة ومريبـة، ورغـم عذوبتهـا وابتسـامتها الفاتنـة شـعر ببعـض التوتـر منهـا، خاصـة وقـد ظلـت عايـدة تنظـر إليهـا بنفـس التوتـر. فقـال فـي اقتضـاب وهـو يتراجـع للخلف :

- سأحاول.

ثـم نظـر إلـى عايـدة وأمرهـا أن تحقنـه بالمزيد مـن المحاليل المغذيـة، وبينمـا بـدأت عايـدة فـي تنفيـذ أمره قالت سـارة:

- مـا رأيـك فـي نزهـة قصيـرة بالخـارج؟ الجـو لطيـف والسـماء لـم تعـاود الأمطـار بعـد. أنـا واثقـة مـن أن تلـك النزهـة سـتروق لـك.

شـيء مـا فـي عقلـه الباطـن كان يدعـوه لئـلا يسـتجيب لدعوتهـا، لكنـه تجاهـل هـذا التحذيـر الداخلـي وقـد رأي أنـه لا خطـر هنـاك مـن التنـزه مع شـابة فاتنـة كهـذه. فابتسـم لهـا وهـو يقـول:

-بالطبع يسعدني مرافقتك.

تأبطـت ذراعـه فـي بسـاطة وغـادرا الغرفـة، لكـن نوبـة مـن الصـداع الرهيـب، فتكـت برأسـه مـع أولـى خطواتـه خـارج الغرفـة. جـاءت نوبـة الصـداع كعادتهـا بغتـة بـلا نذيـر، جاءت كصاعقـة مـن البـرق بـرزت بغتـة فـي سـماء صيـف صـاف. وقـع علـى ركبتيـه وهـو يحيـط رأسـه بذراعيـه فـي توجـع وقـد أغمـض عينيـه بقـوة، وهـو يـردد:

-آآآآه. رأسي. يا للصداع اللعين.

انحنت سارة نحوه وقالت وهي تبعد كفيه في اشفاق:

- يا لك من مسكين. إنك تتألم.

ثم أحاطت جانبي رأسه بكفيها وضغطت بأناملها بقوة وهو تكمل:

دعني أساعدك.

أغمضت عينيها في جمود وشعر فتحي بقوة أناملها الكبيرة وهي تحيط برأسه. مضت بضع ثوان قبل أن تبعد سارة كفيها عن رأسه وسمعها تقول:

- والآن أخبرني، هل تشعر بتحسن؟

فتح عينيه وقد شعر بتحسن حقيقي، كان الصداع قد زال بالفعل. تلاشى تماما بغتة كما أتي بغتة. ورغم الإعياء الذي يشعر به نهض ثانية وقال لها في امتنان ممتزج بالدهشة:

-هذا أفضل، أشكرك. لكن كيف فعلتي هذا؟

كان يشعر بالريبة في الواقع، إنه طبيب وهو خير من يعلم أن الألم لا يتلاشى مرة واحدة هكذا. إنها لم تفعل شيئا غير الضغط الشديد على جانبي رأسه، وهذا قد يقلل الألم بالفعل، لكنه ليس كافيا أبدا لينهي نوبة صداع عنيف كالتي هاجمته منذ قليل.

اجابته سارة في بساطة:

- حيلة قديمة تعلمتها من صديقة صينية. إنها تدعى «مي تونج» وكانت تتحدث طوال الوقت عن الإبر الصينية والمسارات العصبية التي تتحكم بالألم والطب البديل، وقتها كنت لا زلت مراهقة بائسة تعاني من بأس الصداع النصفي الذي لم تنجح العقاقير في تحجيمه، لكن «تشي يانج» نجحت في علاجي، بل وعلمتني كيف أساعد الآخرين.

-هذا مثير!

قالها فتحي في شك، كانا يغادران مبنى الوحدة الصحية في تلك اللحظة حين وجد فتحي نفسه في مواجهة اثنين من الحيوانات الضخمة يرمقانه في تحفز وقد برزت أنيابهما الطويلة من شدقيهما وراحا يزومان في شر.

شهق فتحي في توتر، وتراجع للخلف في ذعر، بينما ضحكت سارة وهي تقول:

-كلا يا فتحي. تقدم ولا تخف، إنهما أليفان ولا يؤذيان أحد. هل ترى!

قالتها وهي تداعب رأسي الحيوانين ورقبتيهما. كانا كلبين. أدرك فتحي هذا من المرة الثانية، لكنهما كانا أضخم كلبين رآهما في حياته كلها، كان ارتفاعهما يزيد عن المتر ونصف، وكان نوعهما غريب عليه وهو الذي لا يعرف من الكلاب غير تلك البلدية البائسة أو البوليسية السوداء الشرسة.

ظل جامدا بمكانه فوجد سارة تتجه إليه وتجذبه من ذراعه نحو الكلبين، لتشجعه على الاقتراب منهما. وهي تضحك وتقول:

- تقدم يا دكتور ولا تشعرهما بخوفك، ألا تعلم أنهما يشمان الخوف، وأن هذا يوتر الكلاب ويزيد من شراستها، خذ نفسا عميقا وحاول أن تربت على عنقهما ليطمئنا إليك ويعتادا عليك.

وجد فتحي نفسه في مواجهة الكلبين ولا يفصله عنهما غير مسافة لا تتعدى النصف متر، كانا يرمقانه في تحفز لا شك فيه، وكأنما يحذرانه:

«سنمزقك أيها الأحمق لو استهنت بنا، فقط انتظر حتى تبتعد صديقتنا سارة، لترى ما سوف نفعله بما يتبقى من جسدك.»

كان يكره الكلاب في الواقع، ويخشاها كالجحيم، وهو الذي يذكر عدد لا يحصى من مطارداتها له في الحارات والأزقة حتى زمن قريب. لكنه وأمام نظرات سارة المنتظرة في صبر وجد نفسه يمد ذراعه ويربت على جانبي وجه الكلب الأقرب، ثم سمع سارة تهمس محذرة:

- ليس وجه الكلاب يا دكتور، تؤمن الكلاب أنك بهذا تتوعدها بالشر ولهذا تهاجمك على الفور، فقط اربت فوق رأس الكلب أو رقبته.

فعل كما أمرته وقلبه ينبض في سرعة. هل تعرف

الكلاب تلك المعلومة حقا التي أخبرته بها سارة ولن تهاجمه كما يحدث له دوما. قبل اليوم كان المستحيل أن يقرب كلبا أو يلمسه، كان يخاف الكلاب بجنون، ولما لا وشوارع شبرا شاهدة على عشرات المرات التي طاردته فيها كلاب ضالة. مطاردات كلفته جروح كثيرة وتعاطي مصل السعار مرتين.

فعل كما أمرته سارة وربت على رقبتي الكلبين بوجه شاحب وصدر يلهث، فقالت سارة في سعادة:

- هل رأيت كم أنهما لطيفين، هذا اسمه تومي وذاك ريتشي. لقد اصطحبتهما معي حين أتيت إلى هنا، ولقد كلفني هذا ثروة حقيقية، لكنني دفعتها عن طيب خاطر لأني لا أحتمل الحياة من غيرهما.

كان يشعر بالإعياء في تلك اللحظة، وبالكاد كانت قدمه المصابة تقوى على حمله، لقد أنهكه كل ما مر به، فقال في ضعف:

-معذرة يا سارة، لكن هل يمكننا تأجيل النزهة لوقت آخر، أشعر ببعض الإرهاق.

-هل أنت بخير.

-إنها نوبة الصداع، دوما أشعر بمثل هذا التعب حين تنتهي.

ابتسمت في بساطة وهي تمط شفتيها وتقول:

-حسنا، لنفعلها في الغد، سأكون هنا في مثل هذا الوقت. فقط أتمنى ألا تمطر السماء في الغد. وداعا.

ودون كلمة أخرى استدارت وقد سبقها الكلبان وراحت تبتعد.

***

(7)

كان يشـعر بإعيـاء حقيقـي فـي تلـك اللحظـة، ورغـم أن الصـداع اللعيـن قـد غـاب تمامـا عـن رأسـه بعـد أن قامـت سـاره بعلاجـه بطريقتهـا الغريبـة، إلا أن الألـم فـي قدمـه العرجـاء كان قـد بلـغ الـذروة، وكأنمـا انتقـل الألـم مـن رأسـه إلـى قدمـه. راح يعـرج فـي مشـيته وعقلـه مشـغول تمامـا ب «سـارة بيندكـت».

مـن تلـك الأجنبيـة ومـا الذي تفعلـه في تلـك البلـدة المجهولة الموجـودة فـي قلـب الصحـراء، وأخيـرا لمـاذا يشـعر بشـيء مـن عـدم الراحـة معهـا، كان يلهـث حيـن بلـغ نهايـة الـرواق، وهنـاك وأمـام المعمـل كانـت عايـدة تراقبـه فـي جمـود وصمـت. وبـدا وكأنهـا تتسـاءل، لمـاذا عـدت مسـرعا ولـم تتنـزه معهـا كمـا أرادت، لكنهـا كعادتهـا احتفظـت بجمودهـا ولـم تسـأل، لكنـه هـو مـن سـألها، وقـال وقـد توقـف أمامهـا:

-من تلك المرأة يا عايدة، وما هي حكايتها؟

لاحت ابتسامة ساخرة خفيفة على شفتيها، وأجابت:

-لو سألتها لأخبرتك. جرب وستخبرك بكل شيء.

-لكني أسألك أنت.

-ومـا شـأني بهـا يـا دكتـور، أنـا أعمـل هنـا كممرضـة وليـس كمخبـر سـري، لـو كان هنـاك مـا يهمـك بالنسـبة للعمـل فأنـا علـى اسـتعداد لأي سـؤال، لكـن لا تسـألني عـن

أي شـيء آخـر.

كانـت جافـة، بـاردة، أدرك أنهـا لـن تخبـره بشـيء، لكنـه وأمـام اسـلوبها الفـظ معـه فكـر فـي أن يسـألها السـؤال المهـم، لمـاذا تعاملـه بمثـل هـذا الجفـاء الغيـر مبـرر، لكنـه أحجـم فـي اللحظـة الأخيـرة، وابتلـع سـؤاله مـع ريقـه ثـم قـال:

-أنـا فـي حجرتـي لـو جـاء أحـد المرضـي، كل مـا عليـك طـرق البـاب وسـأهبط علـى الفـور.

-يمكنـك أن تخلـد للراحـة كمـا تشـاء يـا دكتـور، لـن يـأت أحـد قبـل الليـل.

بصعوبـة صعـد الـدرج وفـي حجرتـه رقـد علـى الفـراش وهـو يلهـث، كطبيـب لـم يكـن هنـاك تفسـير طبـي لمثـل هـذا الإرهـاق واللهـاث، لقـد اسـتيقظ معافـا كجـرس، وحيـن ذهـب لفحـص مريضـه كان بكامـل عافيتـه، ثـم تذكـر أن هـذا الإعيـاء حـدث بعـد أن عالجتـه سـارة بطريقتهـا الغامضة مـن الصـداع، وجـد نفسـه يرقـد علـى الفـراش وهـو يغمغـم:

-ما الذي فعلته بي تلك المرأة الغامضة؟

وعلـى الفـور غـاب فـي نـوم عميـق، ثـم رأي فاتـن، كانـت تعـدو فـي صحـراء مظلمـة مذعـورة تصـرخ فـي جنـون، ومـن حولهـا تنفجـر قذائـف الطائـرات والمدرعـات، بينمـا وجـد نفسـه مقيـدا فـي رمـال الصحـراء فـي زيـه العسـكري بخيـوط خفيـه وهـو يراقبهـا فـي عجـز. ومـن قلـب السـماء

المظلمـة ظهـرت طائـرة هيلوكوبتـر إسـرائيلية ونجمـة داوود تزيـن هيكلهـا، وظهـر مـن باباهـا جنـدي إسـرائيلي شـاب، كان يرتـدي نظـارة شمسـية سـوداء رغم الظـلام، كان وجهـه يبتسـم فـي تلـذذ، وكان يمسـك فـي يـده بندقيـة آليـة ويصوبهـا نحـو فاتـن. حـاول أن يتحـرك نحوهـا ليحميهـا، فلم تطاوعـه قدمـاه، حـاول أن يصـرخ فيهـا محـذرا، أو يناديهـا باسـمها فلـم تخـرج مـن فمـه غيـر همهمـات مخنوقـة غيـر واضحـة.

أصابتهـا الرصاصـات فـي ظهرهـا فطـار جسـدها الدقيـق فـي الهـواء للحظـة، ثـم سـقط، أشـار لهـا الجنـدي الإسـرائيلي بأصبعيـه بعلامـة النصـر. ثـم ارتفعـت الطائـرة. انقشـع الظـلام فـرأى سـارة تقـف أمـام جسـد فاتـن الدامـي، بينمـا وجـد جسـده قـد انتقـل مـرة واحـدة ليكـون فـي الناحيـة الأخـرى بجـوار فاتـن. ابتسـمت سـارة ابتسـامة غامضـة وهي تقـول:

-لقـد انتهـت ولا حاجـة بهـا لهـذا الجسـد الممـزق. ألا توافقنـي.

ثـم ظهـر كلبـا سـارة مـن خلفهـا، تومـي وريتشـي العظيمان. فـي تلـك اللحظـة كانـا أضخـم بكثيـر ممـا رآهمـا فـي الحقيقـة. حتـى أن جسـد سـارة بـدا إلـى جوارهمـا كطفلـة صغيـرة. كانـت عيونهمـا تتوهـج ببريـق نـاري أحمـر، وعلـم فتحـي فـي تلـك اللحظـة مـا سـوف يحـدث، سـوف يلتهمـان جسـد خطيبتـه السـابقة.

شاعرا بالخوف من أن ينتبه الكلبان له كتم أنفاسه في عجز، بينما اندفع الكلبان نحو الجسد المصاب وراحا يمزقانه بأنيابهما. العجيب أن فاتن كانت في تلك اللحظة حية، الأكثر غرابة أنها راحت تقهقه في نشوة وكأن ما يحدث يروق لها، وانقشع الظلام ليظهر الرفاق القدامى الموتى، رفاق الكتيبة الذين استشهدوا جميعا في الحرب، كانوا يشيرون لجسد فاتن في سعادة وهم يضحكون ويصفقون رغم اجسداهم الممزقة هي الأخرى.

هذا جنون، كابوس لعين يجب أن أفيق منه، فقط لو أنجح في الصراخ أو فتح أحد جفني، راح يفكر في جنون.

في اللحظة التالية شعر أن هناك من يدق على كتفه من الخلف، وحين استدار وجد نفسه في مواجهة، العجوز المحتضر. كان يقف خلفه وهو يضحك هو الآخر فاغرا فما مظلما كقبر ملعون، ويشير إلى فاتن في مرح. وبينما تراجع فتحي مبتعدا عنه في خوف حقيقي، فتح العجوز عينيه. كانتا سوداوين كأغوار بئر مظلم، وكان الدود يملأهما. تماما مثلما رآهما في النهار.

هذه المرة أفلتت الصرخة من فمه.

ثم استيقظ.

كان الظلام قد حل في الغرفة. راح يلهث فوق الفراش في ذعر حقيقي والحلم المخيف يقبض على روحه. ورغم برودة المكان كان فمه جاف كأرض أصابها الجفاف. بينما غمر العرق البارد جبهته. استغرق الأمر بضع دقائق

حتى هدأ روعه، كانت قطرات المطر تضرب النافذة في تلك اللحظة بقوة فعلم أنها عادت تمطر.

بحث عن علبة ثقابه فوق الكومود المجاور للفراش وأشعل أحد أعواده ونظر إلى ساعة يده، كانت تشير إلى نحو العاشرة مساء، يا اللّه، ما كل هذا النوم؟!

هل نام كل تلك الساعات التي تزيد على العشر؟ شرب بعض الماء، ثم أشعل سيجارة، وراح يرشفها ببطء في الظلام وهو يستعيد ما رآه في الحلم، لماذا يحلم ب «فاتن» الآن؟ ألم يهرب من تلك الحكاية اللعينة هي الأخرى. ألم تكن فاتن واحدة من الأسباب التي دفعته للهرب إلى الصحراء. كانت فاتن خطيبته وجارته وحبيبته قبل أي شيء. وعدته وهو يرحل الى جبهة القتال أن تنتظره حتى نهاية العمر، طالبته بالنصر، وحين عاد من المعركة مكسورا معاقا، لم تنتظر طويلا لتخبره أنها لا ترغب في إتمام الزواج وخاصة مع وجود عريس سليم البدن يعمل بالتجارة جلبته لها أمها.

أشعل المصباح الزيتي، ثم فتح باب الحجرة، وكالعادة وجد صينية طعام جديدة مغطاة بسلة من الخوص. لابد أن عبد النبي هو من وضعها مثلما حدث بالأمس. كاد يعود بها للداخل ويتناول ما بها حين تناهت لأذنه أصوات خافتة تأتي من حجرات الوحدة الصحية بالطابق الأرضي، أرهف سمعه فلم يميز غير الإيقاع الرتيب للصوت. وكأنما هناك من ينشد أنشودة قديمة غامضة.

عاد إليه توجسه وهو يفكر في مصدر هذا الصوت.

ألـح عليـه عقلـه الباطـن أن يتجاهـل مـا سـمعه وأن يعـود إلـى حجرتـه ويغلـق خلفهـا بابهـا.

متجاهـلا تلـك التحذيـرات الملحـة، ارتـدي خفـه وحمـل المصبـاح وهبـط الـدرج. كان الصـوت بالأسـفل أكثـر قـوة الآن. كانـت عبـارة عـن تراتيـل غامضـة غيـر مفهومـة، وإن أشـعرته بالرعـب، وخاصـة وقـد تذكـر أحـداث الليلـة الماضية.

فكـر أكثـر مـن مـرة فـي تجاهل كل مـا يـدور وأن يهـرع عائدا لحجرتـه ويختبـأ فيهـا. لكـن عنـاده القديـم دفعـه لمواصلـة السـير. تسـلل الضـوء عبـر البـاب المفتـوح لحجـرة ملاحظـة المرضـى، حيـث يوجـد مريضـه الوحيـد، ومـع الضـوء انزلقـت الرائحـة الخانقـة أكثـر قـوة مـن أي وقـت مضـى. صـارت التراتيـل هـادرة فـي تلـك اللحظـة. وبقدميـن لينتيـن كعشـب نـدي، وقلـب واجـف، تسـلل فتحـي ثـم وقـف مـرة واحـدة أمام بـاب الحجـرة ليـرى مـا يـدور داخلهـا.

كان الرجـلان اللـذان أتيـا بالمريـض يقفـان فـي الناحيـة اليسـرى مـن فـراش العجـوز المريـض، وفـي الناحيـة اليمنـى كان هنـاك الصبـي الصغيـر. كانـوا ينشـدون بقـوة تراتيلهـم الغامضـة فـي صـوت واحـد وقـد مـدوا أذرعهـم أمامهـم علـى ارتفـاع نحـو النصـف متـر مـن جسـد العجـوز. كان كل شـيء فيهـم مخيـف، وغيـر أدمـي بالمـرة. لكـن هـذا لـم يكـن السـبب الـذي أفـزع فتحـي فـي الحقيقـة.

لقد كان القرد.

كان هنـاك قـرد حالـك السـواد فـي حجـم الطفـل الصغيـر يقـف فـوق جسـد العجـوز المحتضر وقـد أولـى ظهـره للبـاب. كان سـواد جسـده مخيفـا، فلـم يتمالـك فتحـي نفسـه وصرخ. هنــا التفــت الجميــع نحــوه وصمتــت التراتيــل مــرة واحــدة. لكـن فتحـي لـم يـرى غيـر وجـه القـرد الغاضـب الـذي اسـتدار برأسـه ليـراه، وجـه مريـع، أبشـع مـا فيـه عينـاه الصفـراوان البراقتـان والمشـقوقتان بالطـول كأعيـن الثعابيـن.

تراجـع فتحــي للظــلام بالخلــف ثــم تعثــر بشــيء غامــض وسـقط فسـقط المصبـاح معـه وتطـوح بعيـدا فانطفـأ نـوره، تفاجـأ بالصبـي فـوق رأسـه. وهـو يرمقـه بعينيـه السـوداوين فــي ثبــات. كان يشــعر بالرعــب منــه، لكــن الصبــي قــال بصـوت هـادئ:

-هل أنت بخير يا دكتور؟

-ماذا تفعلون هنا وما هذا القرد؟

- قرد؟! لا يوجد أي قرود هنا. إنه نحن فقط.

وثــب فتحــي مــن فــوق الأرض متجاهــلا اليــد التــي مدهــا الصبـي نحـوه ونظـر إلـى داخـل الحجـرة فـي غضـب ممتـزج بالرعــب، لكــن الغريــب أن القــرد لــم يعــد موجــودا هنــاك. فقـط الرجـلان الواقفـان فـي جمـود غريـب حـول صاحبهـم المريــض وقــد نظــروا إليــه بنفــس الثبــات. بينمــا ســمع الصبــي مــن خلفــه يقــول:

-هل رأيت؟ فقط نحن هاهنا؟

في تشكك وبعينين زائغتين همس فتحي:

-وما تلك الترانيم الغامضة التي كنتم ترددونها.

- إنها أغنية بدوية قديمة كان يحبها.

-وكيف دخلتم إلى هنا.

-إنه عبد النبي، لكنه قد ذهب الآن.

ثم أشار الصبي إلى المريض وقال:

-إرعاه جيدا يا دكتور ولا تدعه يموت. إنهما ليلتان فقط فلا تنس.

ثم استدار مع الرجلين وغادروا المكان بخطوات آلية، تاركين فتحي مع مريضهم المحتضر وهو ينتفض في رعب.

***

(8)

انتظر حتى اطمأن إلى ابتعاد الجميع ثم أحكم إغلاق الباب الرئيسي للوحدة الصحية. لا يرغب أن يستيقظ في منتصف الليل ليجد أن هناك أغراب آخرون داخل الوحدة. يكفيه ضيف واحد في الواقع، مريضه العجوز المحتضر.

وإذ تذكره استيقظ بداخله نداء الواجب. عليه أن يعاود فحصه مرة أخرى ليرى هل من جديد في حالته. عاد لغرفة الملاحظة وراح يرمقها في حذر وعيناه تبحثان عن شيء ما. شيء مخيف سبب له الرعب منذ دقائق. ذلك القرد الأسود اللعين بعيونه الصفراء المشقوقة.

لم يكن هناك أي مكان يصلح للاختباء غير سقف الخزانة المعدنية المخصصة للأدوية، أو أسفل الفراش. بحث أولا بعينيه فوق الخزانة والتي بالكاد وصلها قدر ضئيل من ضوء المصباح الزيتي المعلق بالحائط. مد المصباح نحوها فلم يكن هناك أي شيء يعلوها. تبقى أسفل الفراش، وبتردد انحني على ركبتيه وخفض رأسه ليتأكد، وهو يخشى أن يكون القرد مختبئا هناك.

خاطر مرعب.

من حسن الحظ أن القرد لم يكن هناك أيضا. نهض فتحي وهو يفكر في أنها ربما كانت هلاوس بصرية وتهيؤات. إنه لم يشفَ بعد منها تماما كما يعلم، فما المانع أن يضاف لأشباح رفاقه الموتى الذين يراهم

طوال الوقت، المزيد من الأشباح.

اقترب من العجوز، وشعر أنه قد ألف الرائحة الخانقة التي تنبعث منه، وغمغم وهو ينظر إليه في توتر:

-ترى ما هي قصتك الحقيقية أيها العجوز؟

ثم راح يفحص نبضه ويستمع إلى قلبه وصدره، كان كالأمس بلا تغيير يذكر في علاماته الحيوية. كل الاحتمالات بالنسبة له كانت متعادلة. يمكنه أن يبقى هكذا لشهور عدة، واحتمال موته بعد لحظات يملك نفس القدر. دس في ذراعه النحيل زجاجة جديدة من محلول الجلوكوز وهو يتساءل إن كان هذا كافيا، لتغذيته.

وبينما جلس على مقعد خشبي في انتظار أن ينتهي المحلول، كان صوت المطر بالخارج يعلو رويدا رويدا. وحين حانت منه التفاتة نحو الباب رآهم هناك.

علم أنهم قد عادوا.

كان الصول إبراهيم التهامي أولهم جميعا، بجسده الضخم للغاية وكرشة المهول ورأسه الكبير المستدير، وشاربه الكث الطويل الذي يحيط بفمه ويواصل طريقة لنحو العشر سنتيمترات أسفل ذقنه. كان الصول إبراهيم هو المسؤول عن تدريب الجنود وتوزيع مهامهم في وحدته في الجيش. رجل قروي من إحدى بلدات محافظة الشرقية، يفخر بقدرته على أكل أكثر من عشرين بيضة مسلوقة في الإفطار مع ثمان أرغفة من الخبز البلدي،

ويتشدق طوال الوقت أن الجندي المصري قادر بذراعيه العاريتين على الفتك بكتيبة كاملة من الإسرائيليين الأعداء الملاعين. يقولها دوما وهو يشمر كم قميصه الميري المموه، ليظهر عضلاته الضخمة وكفه الغليظة الهائلة. ثم يبرهن على قوته بأن يضم كفيه ويضرب بهما كتلة من الصخر الصلد ليتفتت إلى تراب.

في الوحدة تراهن الجنود على أنه قادر على اقتلاع دبابة من مكانها بذراعيه، وأن الرصاص نفسه لن يقدر على اختراق عضلاته وعظامه. لكن وفي الساعات الأولى التي بدأت فيها الطائرات الصهيونية هجومها أثبتت طلقة واحدة مجهولة المصدر اصابت جانب رأسه، كذب كل تلك الادعاءات. ومات الصول إبراهيم التهامي على الفور.

في تلك اللحظة كان الصول إبراهيم يقترب من فراش العجوز المحتضر واستطاع فتحي ان يرى الثقب الأيمن الأسود في جانب راسه الأيسر وحوله كتلة من الدم المتجلط. ثم وقف في نهاية المساحة الضئيلة التي تفصل الفراش عن الحائط وراح يرمق المريض في صمت.

من بعده ظهر سعيد المسيري، ذلك القروي النحيل ذو الجسد الأسمر الهزيل، والذي كان يقرض الشعر، والذي ظل يسمعهم قصائده الحزينة التي كتبها لحبيبة -يرفض أن يذكر من تكون- حينا، ولبلدته الكائنة في قلب جبال الصعيد حينا آخرا، قبل أن تجرفه الحماسة لقتال اليهود فيغني لهذا المواويل والقصائد التواقة

للحرب والنصر. طوال الوقت كان سعيد يحدثه عن أن لهفته لقتال الإسرائيليين لا تقل عن لهفته لرؤية ابنة خالته والعودة لقريته للزواج بها، واثقا طوال الوقت الذي طال أنها سوف تنتظره حتى يعود ولن تقبل برجل آخر غيره، وكيف لا تفعل وقد أقسمت له بهذا آخر مرة رآها قبل الذهاب لجبهة القتال، بل وقصت خصلة كبيرة من شعرها الأسود المجدول، ومنحته إياها كي يتذكرها.

طوال الوقت كان يحتفظ بتلك الخصلة في كيس صغير لا يفارق جيبه فوق قلبه. قامت الحرب قرب الثامنة صباحا في الخامس يونيو لعام 1967م، وقرب نهاية اليوم كانت الهزيمة محققة ومريرة في حلق الجميع. لم يحتملها سعيد، وراح يعدو في الصحراء الملتهبة وهو يصرخ في قهر: «يا ولاد الكلب» ويضرب نار سلاحه في الفضاء وكأنما يحارب أشباحا وهمية، ومن العدم أصابته قذيفة، فصنعت فجوة كبيرة في صدر، تماما حيث ظل محتفظا بالخصلة السوداء لحبيبته التي لن يتزوجها بالطبع أبدا.

بفجوته السوداء في صدره النافذة للناحية الأخرى وقف سعيد إلى جوار إبراهيم، وراح هو الآخر يرمق المريض في هدوء.

ثم جاء الدور ليظهر من خلف الباب «غريب الطويل»، المهندس المدني بعد التخرج، وطالب الجامعة المنتمي للتيار الشيوعي سابقا. الشاب الثائر الناقم على كل ما يحدث. يتذكر فتحي نظراته المذعورة دوما والتي تخبرك

بما جرى له في معتقلات الدولة من أهوال. ورغم هذا ظل قادرا على انتقاد النظام ورجاله. ما زالت كلماته تتردد في أذنه وخاصة بعدما اتضح صدقها، كان يصرخ فيهم داخل عنابرهم في حنق ويردد:

- انهم يسوقننا للموت.. ألا ترون؟ المدرعات خردة تالفة والأسلحة غير كافية وأغلبنا لم يتدرب جيدا على استخدامها، ولا توجد استعدادات حقيقية لحرب كبرى مثل هذه.. نحن وقود الهزيمة القادمة، والمحظوظ منا هو من يموت في الموجة الأولى.

مازال فتحي يذكر نزهاتهما الليلة في الصحراء الحارة وهما يتبادلان لفافات التبغ التي يشتركان في إدمان تدخينها، وهو يردد في لهجة أشبه بالجنون:

- لا تصدقهم يا فتحي. إننا لن ننتصر، إنهم يخدرون الناس بالأناشيد الثورية وخطب الزعيم الحماسية، ويلعبون طوال الوقت على أوتار الوطنية، يحدثونهم عن الحرب السهلة والوصول إلى تل أبيب في أيام وإلقاء اليهود جميعا في البحر.

ثم بصق في الرمال حينها وأطلق شخيرا متهكما ثم أكمل:

-هراء. فقط لو كنت متدينا عليك أن تدعوا اللّه ألا يدفننا اليهود في هذه الصحراء بعد أن ينتهوا منا. الحقيقة الوحيدة في كل هذا، هي أنهم يقودون البلد بأكمله إلى حتفه بغباء وعناد. والمصيبة أنه لا أحد عاقل

يحاول منعهم من هذا الانتحار.

لم يصدقه فتحي وقتها، وإن لم يبح له بهذا. ظن أن سنوات السجن والاعتقال والتعذيب قد أصابت غريب بالجنون، لكن الهزيمة أتت وأثبتت كم كان غريب محقا في توقعه وكم كانوا جميعا حمقى مغفلين.

كان غريب مسؤولا عن رشاش آلى أخبروه أن يوجه فوهته نحو الطائرات في السماء حين تأتي، بدأ القتال بغتة وانهالت فوق رؤوس الجميع القذائف. ثم اختفى غريب وسلاحه. هتف أحدهم:

- لقد هرب الجبان بلا شك. هرب بسلاحه وتركنا لنموت.

وأجابه جندي آخر:

- خائن عدو للبلد. ألم يكن شيوعي كافر.

سمع فتحي كل هذا، وإن لم يفهم كيف يمكن لغريب أن يحمل سلاحا يفوق وزنه بكثير ويختفي به في قلب الصحراء هربا من الموت. بعد ساعة هبطت قذيفة فوق موقعهم، صنعت حفرة كبيرة في الرمال، وهناك ظهر جثمان غريب المدفون في الرمال ومازال قابضا على سلاحه، وفمه يصرخ في جنون نحو العدم. لم يهرب البطل، لقد دفن في الرمال.

وها هو ينضم لرفاقه الآن. دخل الغرفة ثم توقف بجوار الصول إبراهيم وسعيد ونظر هو الآخر إلى جسد الرجل

المحتضر في هدوء.

ثم ظهر الرائد محمد شريف، قائد الوحدة، كان من قتلى موجة القتال الأولى، مات وهو يصرخ فيهم بالثبات. كان بطلا بحق، وكانت جائزته قذيفة اقتلعته من مكانه ومزقت ذراعه وعنقه.

دخل شريف الغرفة برأسه المائل على جانبه الايسر وعنقه الممزق الذي تبرز منه العضلات والأوعية الدموية المقطوعة، ما أبقى رأسه فوق جسده كانت فقرات عنقه البادية الأن من فجوة العنق وهو تلمع بلونها اللؤلؤي الأبيض وكأنما صقلتها الشمس الحارقة. وقف إلى جوار رفاقه الشهداء الثلاث ليراقب هو الآخر العجوز المحتضر.

وفي النهاية دخل جورج ملاك. ممرض الوحدة ومساعده ورفيقة في رحلة الهروب والعودة في قلب الصحراء تحت شمس يونيو ويوليو الملتهبة. كانا كل من بقي حيا من جنود الوحدة وكان نصيب فتحي شظية من قذيفة هشمت عظمة فخذه، ساعده جورج على الحركة وقد راح يتوكأ على كتفه طوال الوقت، وكم من مرة نجحا فيها في الهروب من مطاردات طائرات ومروحيات العدو الإسرائيلي التي راحت تتعقب الجنود المنسحبين، وتتسلى بالقضاء عليهم.

قرب التل الكبير جاء طابور من العربات التي تحمل بعض الجنود المصريين، وبحماس اندفع نحو أول عربة وهو يرفع بندقيته عاليا ويلوح بها في فرح جنوني

واندفـع فـي سـرعة نحـو المركبـة، ويبـدو أن قائـد العربـة تفاجـأ بـه، فدهسـه أسـفل عجـلات مركبتـه. كان غريبـا أن ينجـو جـورج مـن رصـاص وقذائـف العـدو، ليمـوت أسـفل مركبـات الزمـلاء. وهـا هـو يدخـل بجسـده الممـزق وعظامـه المتكسـرة. يمشـي بخطـوات متكسـرة مرعبـة وكأن عظـام قدميـه تمزقـت إلـى ألـف قطعـة.

وقـف جـورج إلـى الناحيـة الأخـرى مـن الفـراش. فـي نفـس مـكان الصبـي. نظـر إليهـم فتحـي فـي ترقـب وقلـق، لمـاذا عـادوا ثانيـة للظهـور أمـام عينيـه. ومـاذا يفعلـون حـول فـراش العجـوز المحتضـر. وكأنمـا قـرأت أشـباح رفاقـه أفـكاره، جـاء الجـواب.

رفـع الجميـع أذرعهـم فـوق فـراش الرجـل، وراحـوا يـرددون فـي إيقـاع واحـد نفـس الترنيمـة الغريبـة التـي كان أهـل الرجـل المحتضـر يرددونهـا منـذ قليـل. الترنيمـة التـي أخبـره الصبـي أنهـا أغنيـة بدويـة كان يحبهـا العجـوز. لكنـه كان يعلـم أن هـذا كـذب. كان يشـعر بأنهـا تعويـذة ملعونـة وشـريرة للغايـة يرددونهـا لهـدف مـا.

راح صـوت الأشـباح الموتـى يرتفـع رويـدا رويـدا، وبعـد قليـل شـعر فتحـي أن هنـاك المزيـد مـن الاشـباح الذيـن لا يراهـم يـرددون مـع رفاقهـم تعويذتهـم اللعينـة. انكمـش حـول نفسـه فـي رعـب، ومـن قلـب الظـلام القابـع خـارج غرفـة فحـص المرضـى، ظهـر القـرد الأسـود ضئيـل الجسـد، بعينيـه الصفراويـن المشـقوقتين طوليـا. تحـرك بخطـوات معتدلـة نحـو الفـراش، وارتفعـت الأصـوات فـي تلـك اللحظـة

ثـم قفـز القـرد فـوق الفـراش ليقـف فـوق بطـن الرجـل المحتضـر، وهـو يرمـق وجهـه المتغضـن فـي جمـود.

شعر فتحـي فـي تلـك اللحظـة بهلـع لا حـد لـه، وقلبـه يقـرع صـدره فـي جنـون، مـزق الصـداع رأسـه، واشـتعل الألـم فـي سـاقه المصابـة. راح ضـوء المصبـاح الزيتـي يضعـف بصـورة تـدريجيـة، واضمحـل ضوئـه كثيـرا وبـدا أن سـوف ينطفـأ.

وبصوت مكتوم تضرع فتحي في سره.

- باللّه عليك لا تفعلها الآن، وابق مشتعلا»

لكـن المصبـاح لـم يسـتجب لـه، وتراقـص الوهـج فـي فتيلـه مـرة أخيـرة، ثـم انطفـأ المصبـاح بعدهـا ليسـود الظـلام الدامـس. توقفـت التراتيـل هـي الأخـرى، وأطبـق علـى المـكان صمـت تـام. فقـط دقـات قلـب فتحـي المرعوبـة كانـت الصـوت الوحيـد الـذي يمكـن سـماعه.

منكمشـا فـي مقعـده الخشـبي خلـف المكتـب كتـم فتحـي أنفاسـه. وهـو يتلفـت حولـه فـي ذعـر وكأنـه يفتـش فـي الظـلام عـن عـدو خفـي. ثـم تذكـر أنـه مـازال يحمـل علبـة الثقـاب فـي جيبـه. أخرجهـا بأطـراف أصابعـه، وبيـد مرتعشـة جـرب إشـعال عـود الثقـاب الأول، انكسـر العـود فـي يـده فالقـاه بسـرعة، وأخـرج مـن العلبـة عـودا آخـر قدحـه بالعلبـة فـي سـرعة، فتوهـج العـود للحظـة ثـم انطفـأ بسـرعة، لكـن حـظ المـرة الثالثـة كان أفضـل. ومـع توهـج عـود الثقـاب أظهـرت دائـرة الضـوء مـا سـتره الظـلام عـن عينـه، فأمـام رأسـه تمامـا كان هنـاك وجـه القـرد علـى بعـد سـنتيمترات

قليلة منه، وهو يراقبه بعيونه الصفراء المشقوقة وعلى فمه ارتسمت ابتسامة منذرة. بينما التفت أشباح رفاقه حول القرد وجميعهم ينظرون إليه في تشف وشر.

نفخ القرد في عود الثقاب فانطفأ ليصرخ فتحي في رعب ويده تضرب الظلام بلا هدى وكأنه يدفع كل هؤلاء بعيدا عنه. ارتطمت كفه بالفراغ. لم ينتظر مكانه وراح يعدو في الظلام. اصطدمت قدمه السليمة بشيء ما وآلمته بشدة لكنه لم يتوقف. ارتطم رأسه بالجدار في عنف دامي لكنه ظل مصرا على الفرار. نجح في الخروج من باب الحجرة واتجه مباشرة نحو باب الوحدة الخارجي، لم يفكر في حجرته أو الصعود إليها. لن يحبس نفسه في هذا المكان مع كل هؤلاء الشياطين.

عند الباب حمد اللّه أنه قد ترك المفتاح في المزلاج، لا يدري كيف كان سينجح في فتح الباب في الظلام لو لم يكن المفتاح في مكانه، فتش عليه بأنامله بسرعة وحين عثر عليه أداره في رعب وهو يتوقع أن تحيط بقدميه أصابع باردة مجهولة، أو تتعلق بجسده أو عنقه كف ما قادمة من الظلمة خلفه لتمنعه من الفرار. من حسن حظه أن هذا لم يحدث، وببساطة استجاب الباب ليده وفتح بسلاسة.

الخطوات الأولى في فناء الوحدة الصحية، كانت كافية ليتسمر مكانه، حيث غرزت قدماه في الرمال الموحلة بفعل الماء. ورغم المطر الغزير حد السيول والرياح العاصفة القارسة لم يكن المكان خاويا. كانوا هناك.

حشـد هائـل مـن بشـر يقفـون فـي العـراء ويحيطـون بمدخل الوحـدة الصحيـة تمامـا. حشـد مـن ذئـاب وكلاب وبشـر وظـلال مظلمـة لا يرغـب أي رجـل مهمـا تحلـى بالشـجاعة فـي التفكيـر فـي كنههـا. ومـن بيـن الحيوانـات ميـز فتحـي كلبيـن ضخميـن للغايـة، «تومـي» و «ريتشـي»، كلبـي سـارة.

تقـدم الحشـد نحـوه لتضيق دائـرة الحصـار من حولـه فتراجع فتحـي خطـوة للـوراء، ثـم سـمع ضحكـة غريبـة قادمـة مـن وراءه. اسـتدار للخلـف ليجـد أن بـاب الوحـدة الصحيـة مغلـق هـو الأخـر فـي وجهـه وقـد وقفـت أمامـه أشـباح رفاقـه والقـرد الأسـود وبينهـم وقـف العجـوز المحتضـر فـي ثبـات مريـب غيـر آدمـي.

دقـات قلبـه فـي تلـك اللحظـة كانـت كسـيارة تعـدو وقـد تلفـت مكابحهـا. والصـداع فـي رأسـه صـار مقصلـة حـادة تتأهـب لشـق دماغـه. علـم أنـه بعـد لحظـات سـيهوى فـي غيبوبـة.

فـي الواقـع كان هـذا أكثـر مـا يتمنـاه أمـام كل هـذا الرعـب، حتـى لـو كان فـي هـذا موتـه.

مرة أخرى كان من حسن حظه أن الأمر لم يتأخر.

وفقد وعيه.

❊❊❊

(9)

حين استيقظ فتحي وجد نفسه في الحجرة نائما في فراشه. كان الصباح قد جاء منذ ساعات كما يبدو من حوله. نظر إلى المنبه فأشارت عقاربه المضيئة للتاسعة صباحا.

هل نام كل هذا؟

جرب أن ينهض فشعر وكأنما يهوى في بئر أسود بلا قرار من الدوار. ضغط رأسه بقوة في وسادة الفراش وهو يحاول تذكر كيف عاد إلى الحجرة بعد أحداث الليل الرهيبة، ما يتذكره أنه فقد وعيه بالأمس في الفناء الخارجي للوحدة الصحية، فقد وعيه وهو محاصر من الأمام والخلف بحشد مريب من البشر والحيوانات. فكيف عاد لحجرته؟

هل تركوه ورحلوا، وحين استرد وعيه عاد للحجرة؟ لكنه لا يتذكر أنه قام بشيء كهذا.

كانت عودته لحجرته لغز مريب.

نظر للحجرة من حوله فلم ير فيها أي تغير قد طرأ عليها، نظر للأرض المبلطة باحثا عن أي أثر غير آثار أقدامه فلم ير شيئا، حتى أثار قدمه على بلاط الحجرة كانت غير موجودة. لقد كانت تمطر بالأمس وبغزارة والأرض الرملية كانت موحلة. قدمه نفسه كانت ملوثة

بالرمال والوحل، ولو أنه عاد لحجرته بالأمس بعدها لترك على البلاط أثارا لبعض الرمال والوحل بلا شك.

نهض ببطء هذه المرة كي لا يعاوده الدوار. ثم نظر لقدميه فوجد أنهما نظيفتان تماما ولا رمال عالقة بهما. خفض عينيه أسفل الفراش ليرى حذائه، كان نظيفا هو الآخر ولا أثر للوحل فيه. وأخيرا نظر لملابسه التي يرتديها، كانت نفس الملابس التي على جسده بالأمس. لم يكن بها أي أثر للبلل، ولم يكن هناك أي دليل على سقوطه بها وسط المطر.

هل كان يهذي ويتخيل كل ما مر به من أهوال؟

أم أنه كان يعيش كابوسا دون أن يدرك هذا؟

الأمر مريب ووجد نفسه يشك مرة أخرى في عقله. لقد عاد لجنونه، جنونه الذي لازمه حين عاد بمفرده كآخر فرد من وحدته على قيد الحياة، جنونه الذي زاد حين علم أن «فاتن» خطيبته قد ألقت بدبلة الخطوبة في كف أمه ورمت معها عشرات الأحلام ومئات الذكريات وآلاف القصائد التي قرأها لها وألف بعضها من اجلها، لأنها لن تطيق انتظارا طويلا حتى تنتهي حرب لا تلوح في الأفق نهايتها، ولأن هناك عريس جاهز مستعد للزواج بها.

لقد أخبره طبيبه النفسي أن عقله تأثر كثيرا بمعاناته، وأن الأشباح التي يدعي أنه يراها ما هي إلا هلاوس بصرية يختلقها عقله الباطن لينفث بها عن شعور عميق بالذنب ممتزج بغضب كبير مما لاقاه، وربما زاد

من حدة مرضه إصابة قدمه التي منعته من العودة للجيش ليواصل الحرب ويحصل من العدو الصهيوني على ثأره.

لكن ما أداره أن كل ما حدث كانت أوهاما بالفعل، ربما كان ضحية خدعة متقنة، خدعة تستهدف إثارة جنونه وتشككه في نفسه، مال لهذا الاحتمال وتمنى لو يكون هذا صحيحا، كان من العسير أن توجد أوهام تترك أثرا في نفسه بمثل تلك القوة،

مرتبكا غادر الغرفة وهبط للطابق السفلي. كالعادة واجهه نفس السكون المريب الذي يسود المكان رغم أنه النهار. كانت عايدة هناك، تجلس في صمت فوق أحد مقاعد الانتظار في رواق الوحدة الصحية، حياها فأجابته في اقتضاب ثم قالت:

-ماذا ستفعل مع مريض الغرفة؟

-ألا زال حيا؟

-كان على قيد الحياة حين رأيته منذ قليل.

-حسنا، سأراه بنفسي، اتبعيني من فضلك.

قالها في حسم واتجه للمريض. كان مثلما كان بالأمس وقبل الأمس، في طور احتضار لا ينتهي، أشار إليها بلا مبالاة أن تمنحه زجاجتين من محاليل الملح والجلوكوز. ثم تحرك للخارج، لدهشته سمعها تسأله:

- هل أنت ذاهب إلى أي مكان؟

ورغم دهشته من سؤالها، إلا أنه التفت نحوها وقال في بساطة:

- أرغب في رؤية البلدة.

لاحظ الاضطراب على وجهها، قرأ في عينيها أنها ترغب في تحذيره من فعل هذا. ثم بدا وكأنها ابتلعت كلماتها ثانية، وتشاغلت عنه بإعداد زجاجات المحاليل. لم يجد أمامه غير أن يواصل طريقه، فاتجه للخارج.

الرمال كانت مبللة والهواء البارد مثقل من حوله برائحة الندى، والسماء رغم الصباح كانت مغطاة بأكملها بالسحب. شعر بلسعة برد محببة تضرب وجهه الشاحب منحته بعض النشاط، فاتجه في حسم نحو الطريق المؤدي للبلدة. لم يقابل أي شخص في طريقه، تماما مثلما أتى أول مرة. لا رجل ذاهب لعمله ولا امرأة تحمل جرة ماء لتملأها من البئر ولا صبية تمرح أمام البيوت في عرض الشارع. لم يعثر كذلك على أي أثر للحيوانات الضالة أو حتى الأليفة. بدا المشهد أمامه مريبا وكأنه يسير في بلدة مهجورة. لكنه كان متأكدا الآن من وجود أحياء داخل تلك المنازل المنخفضة المشيدة بالحجارة والمعرشة بالأخشاب.

لقد رآهم بالليل أكثر من مرة وهم يلتفون حول الوحدة الصحية في منظر مخيف غير مفهوم حتى الآن. ورغم أن الشكوك في نفسه أنه ربما كان يهذي أو يتخيل ما

يـراه كل ليلـة، إلا أن شـيئا فـي أعماقـه كان يصـر عـن أن الحشـد الـذي رآه بالليـل كان حقيقـة.

حقيقة مخيفة تخفي خلفها سر مريب.

عـاد ليفكـر، مـا الـذي يدفـع بلـدة بأكملهـا للنـوم نهـارا والنشـاط ليـلا، الحادثـة الوحيـدة المشـابهة التـي يذكرهـا كانـت فـي مصـر فـي فتـرة الخليفـة الفاطمـي «الحاكـم بأمـر اللّه»، حيـن أمـر الخليفـة المجنـون أهالـي المحروسـة بالعمل ليـلا والنـوم فـي الصبـاح، وحـرم فتـح الحوانيـت والأسـواق فـي النهـار. لكنهـا فـي النهايـة كانـت حادثـة شـاذة ابتدعهـا حاكـم مجنـون، إذا مـا سـر مـا يفعلـه أهالـي هـذه البلـدة؟

انتهـى الشـارع الـذي يسـير فيـه وتفـرع إلـى عـدة حـارات جانبيـة، ظلـت البيـوت سـاكنة دون أن تصـل إلـى أذنـه أي أصـوات غيـر عـواء الريـح التي تضـرب الجـدران. اختـار طريقا إلـى يسـاره وتقـدم. كان الشـارع أضيـق بكثيـر مـن الشـارع الرئيسـي، وقـد أحاطـت بجانبيـه بيـوت متهالكـة بعـض الشـيء.

إلـى يمينـه كان هنـاك منـزل منخفـض عـن الطريـق، لاحـظ نافذتـه المنخفضـة المفتوحـة التـي يمكنـه ببسـاطة لـو انحنـى أن ينظـر مـن خلالهـا ليـرى المنـزل مـن الداخـل. تـردد للحظـة وقـد تذكـر تحذيـر البعـض لـه قبـل المجـيء إلـى هنـا مـن عـدم تسـامح البـدو فـي مـن ينتهـك حرمـات بيوتهـم أو يهتـك أسـرارهم. لكـن الفضـول فـي نفسـه كان عاتيـا، وقـد طغـى تمامـا علـى تعقلـه وحـذره، اقتـرب مـن

النافـذة الضيقـة ومـد عنقـه عبرهـا ونظـر إلـى الداخـل.

كانــت تلــك النافــذة هــي نافــذة حجــرة نــوم كمــا بــدا مــن الضـوء الخفيـف المتسـلل للداخـل، رأى فـراش عتيـق يرقـد فوقـه رجـل عجـوز فـي سـكون غريـب. كان الرجـل ينـام على ظهـره فـي ثبـات، دون أن تصـدر عنـه أي حركـة تشـي بأنـه علـى قيـد الحيـاة، حـاول مـن مكانـه أن يراقـب حركـة صـدر الرجــل ليتأكــد إن كان حيــا فلــم يســاعده الضــوء الخافــت علـى التيقـن مـن هـذا.

كطبيـب كان يعلـم أن النـاس لا تنـام هكـذا فـي جمـود، فقط تفعـل هـذا الجثث!

لاحــظ فتحــي فــي تأفــف تلــك الرائحــة العطنــة الخانقــة القادمــة عبــر النافــذة مــن داخــل الغرفــة، نفــس الرائحــة الخانقـة التـي كانـت تنبعـث مـن مريضـه. هـل يكـون هـذا العجــوز مريــض يحتضــر هــو الآخــر؟ ولمــاذا لــم يــأت بــه أهلـه للوحـدة الصحيـة كالآخـر طلبـا لمشـورته الطبيـة؟

لغز آخر لا يعلم تفسيره.

مغالبـا تـردده قـرر القيـام بأمـر جـريء، اندفـع نحـو البـاب ثـم قرعـة فـي قـوة. لابـد أن هنـاك مـن يعنـي بهـذا العجـوز فـي المنـزل. انتظـر للحظـات ثـم أعـاد الكـرة. لاحـظ نقـش غريـب مرسـوم علـى البـاب. النقـش منحـوت فـي الخشـب بخـط برسـوم بدائيـة بسـيطة، كان النقـش يحمـل رأس كلـب!

لــم يــأت جــواب مــن الداخــل لطرقاتــه، لكــن البــاب تحــرك

للداخـل قليـلا بفعـل قبضتـه.

إنه مفتوح إذا.

دفعه في حذر وهتف في توتر:

-مرحبا. هل هناك أحد بالداخل.

وككل مـرة لا جـواب. غالـب رهبتـه وفتـح البـاب كلـه ثـم خطـا نحـو الداخـل. اسـتقبلته الرائحـة العفنـة بقـوة. كتـم أنفاسـه وهــو ينظــر بعينيــه للردهــة الكئيبــة التــي تحــوي بعــض الأغـراض البسـيطة. لـم ينتظـر فـي مكانـه طويـلا، واتجـه بحـذر نحـو حجـرة النـوم المطلـة علـى الشـارع.

حجرة العجوز الذي رآه عبر النافذة.

كان بابهـا مفتوحـا، وحيـن اقتـرب مـن الفـراش كان العجـوز علــى نفــس وضعــه الأول الــذي رآه، هــزه فــي رفــق فلــم يسـتيقظ، رفـع كفـه ليتحسـس نبضـه فوجـد شـرايينه تنبـض فـي انتظـام. إنـه حـي لكـن جسـده كان بـاردا للغايـة كالجثـث، نومتـه الغريبـة تلـك توحـي بأنـه فـي غيبوبـة عميقـة. رفـع فتحـي بصـره نحـو وجـه العجـوز المتغضـن لتصـدم عينـاه بعينـي العجـوز المفتوحتيـن علـى اتسـاعها ومقلتاهمـا مصوبتـان نحـوه.

شـهق فـي فـزع حقيقـي. وهـو يتراجـع للخلـف، كانـت عينـا العجـوز مغلقتيـن حيـن دخـل منـذ لحظـات. والآن همـا مفتوحتـان، عينـان مخيفتـان بـلا رمـوش تحيطهمـا. مثلمـا هـي عينـا العجـوز المحتضـر فـي الوحـدة الصحيـة!

هل استيقظ الرجل؟

غمغم في ارتباك:

- أسف لو أزعجتك.

لكـن العجـوز ظـل جامـدا فـوق الفـراش وصـدره يعلـو ويهبـط بضعـف وبـطء. عجـوز يتعفـن فـي غيبوبـة. لكـن عينيـه ظلتـا تتابعـان فتحـي فـي إلحـاح. وكأنهمـا تـدركان أنـه شـخص غيـر مرغـوب بـه اقتحـم المنـزل. ببـطء تراجـع فتحـي بظهـره نحـو بـاب الغرفـة. تذكر أنـه قـد درس أن أعين المصابيـن بالتهـاب السـحايا، تتصـرف بمثـل تلـك الطريقـة المريبـة. تبـدو عيونهـم كعيـون الدمـى الزجاجيـة التـي تتبـع مـن ينظـر إليهـا.

هل يكون ما أصاب العجوز عدوى فيروسية؟

اصطـدم ظهـره فـي تلـك اللحظـة بجسـد ليـن، وحين اسـتدار فـي سـرعة وفـزع وجـد نفسـه فـي مواجهـة امـرأة عجـوز. شـهق فـي انفعـال وهـو يـرى وجههـا المتسـخ وشـعرها الثائر حـول وجههـا وكأنمـا لـم يعـرف يومـا التهذيـب أو المشـط.

كان هنـاك دمـل ضخـم علـى طـرف أنفهـا. بـدت لعينيـه كسـاحرة عجـوز شـمطاء، كمـا كانـوا يتخيلونهـا فـي العصـور الوسـطى وقصـص الأطفـال الآن. شـعر بالفـزع وهـو يراقـب أصابـع يديهـا الضامـرة ومفاصلهـا المتضخمـة. كانـت ترمقه فـي غضـب وكراهيـة. أراد ان يعتـذر لكـن حرفـا لـم يخـرج مـن فمـه. كان يشـعر برعـب لا حـد لـه أصابـه بالخـرس.

مضت لحظات طويلة ثم همست العجوز بصوت كالفحيح:

- ارحل من هنا.

أرعبه صوتها بشدة. هل يكون هذا هو تحذيرها الأخير قبل أن تحوله لجرذ أو قط أو أي حيوان آخر كما تفعل الساحرات؟

لم يفكر كثيرا، وبحذر كي لا يلمسها انكمش جسده بشدة وهو يمر من جوارها ثم أسرع نحو باب المنزل الخارجي وهو يلهث. في الخارج وأمام كل المنازل من الجانبين وقف أهالي البلدة جميعا وكأنما هم في انتظاره، كانت عيونهم جميعا مصوبة عليه. عيون جامدة تمتلئ بالكراهية والغضب. كانت العيون تحمل شيئا غير أدمي. كما كانت وقفتهم الجامدة المتصلبة كالتماثيل تصيبه بالذعر.

لم يشعر فتحي بالرعب في حياته كلها مثل تلك اللحظة، ولا حتى حين واجه جنود العدو الإسرائيلي، ورصاصتهم وقذائفهم تطارده.

ومن خلف أذنه ارتفع صوت يعرفه جيدا، صوت غريب الطويل، صديقه الشيوعي الشهيد:

-اهرب أيها الأحمق.

هنا بدأ يجري بكل قواه، تعثر في حفرة صغيرة لم يرها، لكنه نهض بسرعة وواصل العدو. لم ينظر لحظة للوراء. كان يعلم أن هذا كفيل بأن يتعثر ويسقط، كان

يخشى أن يكون أحدهم في أثره.

عند الشارع الرئيسي لم يكن هناك أي من أهالي البلدة أمام البيوت. فقط راحت الرياح الباردة ترتع بلا رقيب. ورغم أن قدمه المصابة كانت تنضح بالألم الشديد في تلك اللحظة وكأنما تحتج على المجهود الكبير الذي يدفعها للقيام به إلا أنه واصل العدو.

قرب الوحدة الصحية خفف من الجري ثم توقف وراح يلتقط أنفاسه في سعار، لنحو الدقيقة، وببطء بعدها راح يجر قدمه المصابة وهو يواصل السير نحو باب الوحدة الصحية.

وهناك وجد سارة تنتظر وهي ترمقه في صبر وصمت

***

(10)

كانــت ســارة فاتنــة، حقيقــة لــن ينكرهــا إلا مــن يتســم بالعمــى.

بــدت مــن بعيــد فــي تلــك اللحظــة ببشــرتها البيضــاء التــي لوحتهـا شـمس الصحـراء، وشـعرها الأشـقر الناعـم يتطايـر حــول وجههــا بفعــل الريــح القويــة ك «ربــة» مــن ربــات الجمـال. فاتنـة مثيـرة قادمـة مـن فـوق جبـل الأوليمـب لتقوم بعمـل غامـض فـي تلـك البلـدة المنسـية.

من العجيب أن يتسم كل من يحمل اسم سارة بالجمال!

حتى المصريات لم يخالفن تلك القاعدة!

راح يدنـو منهـا فرمقتـه بعيـون متشـككة سـرعان مـا دارتهـا بابتسـامة باهتـة وهـي تسـأله بالعربيـة:

-مرحبا يا دكتور عبد الوهاب. لقد كنت أنتظرك.

انتـزع مـن وجهـه ابتسـامة مرحبـة ليـداري بهـا توتـره، وهـو يجيـب:

-أسف لو تركتك تنتظرين، لم أكن أعلم.

اقتربت منه أكثر وهي تغمغم مبتسمة:

-يـا إلهـي؟ انظـر إلـى حالـك. تبـدو كصبـي بائـس طاردتـه كلاب ضالـة لوقـت طويـل.

كان فتحي يقف أمامها وهو يلهث بالفعل، بينما عينه ترمقها في توتر ورهبة، فتاة أمريكية تعيش في بلدة نائية، أهلها يتسمون بالغرابة، وتدور فيها طوال الوقت أحداث مريبة، من المستحيل بالطبع ألا تكون قد شعرت بغرابة ما يدور من حولها، أما الاحتمال الأكثر صوابا، أن تكون متورطة معهم فيما يحدث.

تجاوزها متحاشي نظراتها وهو يغمغم:

- معذرة. هل يمكنني الجلوس أولا. إنها قدمي المصابة. هي تؤلمني قليلا.

قالها وتحرك نحو مصطبة من الحجر معدة للانتظار في فناء الوحدة الصحية. جلس فوقها وراحت يده تدلك القدم المصابة. لدهشته انحنت أمامه على ركبتها وأزاحت يده عن قدمه المصابة وراحت تدلكها بدلا منه وهي تقول:

- يا لصغيري البائس. تبدو بحاجة لمن يعتني بك. دع لي هذه المهمة.

أراد أن يبعد أناملها عن قدمه لكن تلك الكهرباء التي سرت في جسده حين لمست أناملها قدمه منعته. كانت يدها ماهرة في فنون التدليك بالفعل. وكالسحر راح الألم ينحسر سريعا عن قدمه. تماما كما فعل الصداع من قبل. راقبها وهي تعمل في جد، قبل أن ترفع رأسها وتقول:

-والآن أخبرني، هل زال الألم؟

وجد نفسه يجيب بسرعة دون تفكير:

-كيف فعلتِ هذا؟ لقد ذهب الألم تماما! تملكين كما أرى أصابع ذهبية، هل أخبرك أحد من قبل بهذا؟

-ربما كنت ساحرة.

قالتها في مكر فارتجف من وقع الكلمة وهو يرقب عينيها الزرقاء التي حولها ضوء النهار لبحيرة غامضة من لون عجيب، لكنها سرعان ما ابتسمت وضحكت وهي تقول:

-إنني أمزح بالطبع، ألم أخبرك من قبل بصديقتي الصينية التي علمتني بعض المهارات؟

ضحك في مجاملة ثم نهض فنهضت هي الأخرى، وقالت له:

- والآن هل حان الوقت لتفى بوعدك ونسير سويا قليلا.

لدهشته شعر بأن النفور الذي يشعر به نحوها قد ذهب. ضرب الأرض برفق بقدمه المصابة ليختبرها، وحين وجدها لا تؤلمه كثيرا أعلن موافقته على التجول معها. غادرا حديقة الوحدة الصحية سويا، وعند مفترق الطرق منحته سارة ابتسامة مثيرة جديدة وهي تقول:

-إلى أين تحب أن نذهب؟

نظر إلى البلدة بقلق وهو يتمنى ألا تقترح العودة إلى

البلـدة. لكنـه وجدهـا تتأبـط ذراعـه فـي بسـاطة وتجذبـه للناحيـة الأخـرى وهـي تقـول فـي نعومـة:

-مـا رأيـك فـي السـير فـي هـذا الاتجـاه بعيـدا عـن البلـدة. لا أعتقـد أنـك قـد ذهبـت إلـى تلـك التـلال مـن قبـل. سـأريك مشـهدا مثيـرا للمـكان كلـه مـن فوقهـا.

تحـركا سـويا وقـد شـعر بحـرارة جسـدها الملتصـق بـه. كان يرتـدي معطفـا ثقيـلا، بينمـا كانـت سـارة ترتـدي بلـوزة قصيـرة الأكمـام، دون أن يبـدو عليهـا وكأنهـا تشـعر بالبـرد مـع تلـك الملابـس الخفيفـة.

مـن حسـن حظـه أنـه لـم يلتفـت للخلـف، فهنـاك كانـت عايدة تقـف أمـام بـاب الوحـدة الصحيـة وهـي تراقبهـم وترميهـم بنظـرات مرتجفـة. كان ليشـعر يالذعـر لـو رأى هـذا. سـارا فـي صمـت وقدماهمـا تغـوص فـي الرمـال المبللـة قبـل أن تقـول سـارة:

- كم أهوى تلك الصحراء، إنها مثيرة وغامضة

- لكن ما الصحراء غير الرمال والقيظ والعطش.

تمنـى لـو أكمـل جملتـه وقـال كلمـة «المـوت»، فبعـد الحـرب لـم تعـد الصحـراء تذكـره بغيـر الهزيمـة والمـوت، لكنـه لـم يقلهـا، بينمـا واصلـت سـارة الحديـث:

- أشـعل خيالـك قليـلا أيهـا الشـاب، ولا تشـعرني بخيبـة الأمـل. الصحـراء تعنـي المغامـرة والخيـال والسـحر والغمـوض. الصحـراء تعنـي الفرسـان والخيـل. ألسـت عربيـا

تدرك تلك الحقيقة؟ يدهشني كثيرا أن يراها أحد أبنائها بمثل تلك الصورة المبتورة الفقيرة.

- ربما لأنك فيها لفترة وجيزة. إنها بالنسبة إليك مجرد رحلة مثيرة أو مغامرة قصيرة مختلفة عن حياتك في أمريكا.

توقفت والتفتت نحوه وهي تقول في غموض:

- هل يمكنك تخمين كم تلك المدة التي مكثت فيها هنا؟

ابتسم في ارتباك وهو لا يفهم مغزى سؤالها قبل أن يجيب:

-لا أدرى. ربما عام أو أكثر، لكنني أجد أثر شمس الصيف على بشرتك.

عادت لتسير وهو تجذبه من ذراعه قبل أن تجيب:

- كلا يا دكتور عبد الوهاب، أنا هنا منذ خمس سنوات كاملة.

شعر بالدهشة وهو يفكر في كلماتها. هل عاشت هنا خمس أعوام كاملة وسط الصحراء في بلدة تحيا حياة رتيبة لا جديد؟ ما الذي يدفع كائن عاقل للمكوث كل هذا الوقت هنا؟

طرح عليها تساؤلاته التي لم يقدر على كتمانها، وقال:

-وماذا قد يكون هنا ليدفعك لقضاء خمسة أعوام كاملة هنا.

أجابت في ببساطة ممتزجة ببعض الغموض:

-التدريس. أقوم بتعليم الانجليزية لأطفال القرية.

-التدريس فقط.

ابتسمت وهي تقول:

-تبدو متشككا، لكنك محق. لست هنا من أجل التدريس فقط بالطبع. إنني واحدة من علماء علم الإنسان، الأنثروبولوجي كما نطلق عليه. وفي الوقت الحالي أقوم بإعداد دراسة عن السلوك البشري في المجتمعات البدائية، ودير النعمان كما ترى بلدة نائية معزولة، منحتني فرصة ذهبية للعثور على مجتمع لا يعرف الكثير عن الحياة المدنية الحديثة. الناس هنا تعيش الحياة نفسها التي عاشها الاجداد منذ أكثر من ألف عام.

غمغم فتحي في تشكك:

-مازلت أرى الأمر محير. ربما كنت أتقبل هذا لو مكثت هذا لعام أو حتى اثنين. لكن خمسة أعوام؟ في رأيي أنك إما متحمسة أكثر من اللازم، أو تخفين سببا حقيقيا آخر.

- وما هذا السبب الحقيقي برأيك؟

- لا أعلم. ولهذا أسألك.

أطلقت ضحكة عالية وهي تقول:

-نحـن الغربييـن نختلـف كثيـرا عنكـم أيهـا العـرب، فبينمـا ترمقـون الغـرب طـوال الوقـت بشـغف ولهفـة، نتـوق نحـن للسـحر الكامـن فـي أرضكـم. بالطبـع لا أتحـدث عـن مدنكـم القبيحـة المشـوهة القـذرة. إننـي أتحـدث عـن مـكان لـم تتلفـة الحضـارة كهـذا. ولهـذا لـن أكـون أول ولا آخـر شـخص يرغـب فـي قضـاء سـنوات طويلـة مـن عمـره فـي بلـدة بدائيـة كهـذه.

-أنتم أيها الغربيون لا تعرفون عنا غير الأساطير.

-ربمـا كنـت محقـا يـا دكتـور عبـد الوهـاب، وربمـا كان هـذا سـر سـحر الشـرق فـي عقولنـا، بالمناسـبة أرجـوا ألا تبتعـد عنـي ونحـن نسـير. هـذه المنطقـة تحـوي رمـال متحركـة وتجربـة السـقوط فيهـا ليسـت مـن التجـارب المحببـة للمـرء.

نظـر فتحـي أسـفل قدميـه علـى الفـور فـي توتـر، ووجـد نفسـه يلتصـق بهـا أكثـر، ران عليهمـا الصمـت لبضـع دقائـق، ثـم أشـارت سـارة بيدهـا للأمـام وهـي تقـول فـي سـعادة:

- بالمناسـبة لقـد جئـت بـك إلـى هنـا لأنـي أحـب كثيـرا هـذا المـكان؟

أمامـه كان يـرى شـواهد حجريـة بدائيـة تمتـد أمامـه خلـف مـا بـدا لـه أنـه بئـر قديـم، وتنتهـي بالتـل المرتفـع. كانـت شـواهد قبـور.

هل تقول سارة أنها تحب المقابر؟

لـم يعلـق فتحـي وتبعهـا فـي وجـوم وصمـت. كانـت هنـاك بعـض أشـجار النخيـل هنـا وهنـاك مـع بضـع أشـجار أخـرى. مـد فتحـي بصـره فـي فوهـة البئـر فلفـت نظـره الرائحـة العفنـة التـي تبعـت منـه. رائحـة يعرفهـا الأن جيـدا. انهـا نفـس الرائحـة العفنـة التـي تصـدر مـن مرضـى البلـدة. دفـع رأسـه بعيـدا للخلـف وهـو يقـول متأففـا:

-يـا إلهـي مـا تلـك الرائحـة؟ هـل يلقـون موتاهـم فـي تلـك البئـر؟

أجابته في دهشة:

-بل يدفنوهم في تلك القبور بالطبع. لماذ قلت هذا؟

-إنها تلك الرائحة، ألا تشمينها؟

-ربمـا سـقطت بعـض الحيوانـات الضالـة فـي البئـر ونفقـت ثـم تحللـت.

احتمـال معقـول، لكـن مـاذا عـن المرضـى، هـل يبتلعـون هم الآخريـن حيونـات ميتـة تخلـق فيهـم تلـك الرائحة الشـنيعة.

ابتعـدت عنـه سـارة فـي تلـك اللحظـة واخترقـت صفـوف المقابـر الممتـدة أمامهمـا دون أن تجذبـه ليرافقهـا، لا يـدري لمـاذا فضـل أن يتأخـر عنهـا ويراقبهـا مـن مكانـه، ولذهولـه وجـد صوتـا يهمـس فـي أذنـه قائـلا:

- خذ حذرك منها أيها الأحمق، وراقبها جيدا.

كان صـوت الصـول إبراهيـم التهامـي، بلهجتـه الريفيـة المؤنبـة التـي اعتـاد علـى إلقاءهـا علـى آذان جنـوده حيـن يقومـون بعمـل خاطـئ فـي الوحـدة العسـكرية. نظـر حولـه فـي ذهـول فلـم يـر شـبح الصـول إبراهيـم ولا شـبح أي واحـد مـن رفاقـه الموتـى. إذا مـن أيـن أتـى هـذا الصـوت المنـذر؟

نظـر أمامـه فوجـد سـارة تنحنـي نحـو بـاب أحـد القبـور وقـد ظهـر أنـه مفتـوح وتركـع أمامـه، وبعـد لحظـة خـرج حيـوان سـرعان مـا عرفـه فتحـي.

كان حيوان شبيه بالكلب.

كان ابن آوى!

ولذهولـه وجدهـا تربـت علـى رقبتـه فـي حنـان حقيقـي والحيـوان مستسـلم تمامـا لأناملهـا. أمـر لا يصـدق.

لحظـات وخـرج مـن القبـر المفتـوح المزيـد مـن بنـات آوى حتـى صـار عددهـم خمسـة، وجميعهـم التفـوا حولهـا فـي هـدوء، بينمـا راحـت تربـت علـى رقابهـم وظهورهـم وكأنهـم حيواناتهـا المستأنسـة، كان يراقبهـا فـي غيـر تصديـق وانفعـال حيـن التفتـت بنـات آوى كلهـا مـرة واحـدة نحـوه بوجوههـا القبيحـة وكشـرت عـن أنيابهـا وكأنهـا تنـذره.

تراجـع فتحـي للخلـف فـي توتـر وهـو يفكـر إلـى أيـن يهـرب لـو قـررت تلـك الحيوانـات مهاجمتـه، بالطبـع لـن تسـاعده قدمـه المصابـة علـى الجـري والهـروب. كان يعلـم أن تلـك الضـواري الكريهـة تختـار فرائسـها بعنايـة. تتجنـب القـوي

منها وتختار الضعيف المريض او الجريح. حيوانات ملعونة وضيعة لن تجد أبدا في ذلك المكان من هو أضعف منه لتنال وجبة لا بأس بها، وجد نفسه يهتف في صوت مخنوق:

- سارة.

لكنها ظلت في مكانها واكتفت بأن نظرت إليه وهي تقول:

- تقدم يا فتحي ولا تخف. لن يؤذك أي منهم وأنا معك، إنهم حيوانات لطيفة كما ترى.

رمق الحيوانات المفترسة التي كشرت عن أنيابها في وجهه فلم يرى أي لطف فيها يدعوه للاقتراب منها، فقال في عناد:

- أريد أن أعود من فضلك.

لكنها قالت محتدة:

- كلا، إننا لم نصعد التلال بعد.

- يمكننا أن نصعدها في وقت آخر، لكني دعينا نذهب.

نهضت فتراجعت الضباع لداخل القبر، وقالت وهي تعود إليه:

-هل عادت قدمك لتؤلمك؟ يمكنني أن أدلكها لك لو شئت.

أراد أن يخبرها أنها ليست ساقه. إنها وحيواناتها المتوحشة من يخافهم الآن، لكنه قال بدلا من هذا:

-لا شأن لقدمي بهذا، فقط أرغب في العودة من فضلك.

رمقته بهدوء للحظات قبل أن تقول وهي تتحرك:

-حسنا أيها الرجل الشرقي المتقلب. فقط عدني أن ترافقني في تلك الرحلة في وقت آخر.

رمق بنات آوى التي عادت لتدخل القبر المفتوح مرة أخرى وقال:

-أعدك بهذا.

عادا سويا دون ان يتبادلا الكثير من الكلام هذه المرة، في الواقع كان ما رآه أكبر من أن يتخيله، امرأة تداعب بنات اوى وتحب المقابر، في بلدة تدور فيها أحداث مخيفة.

إن لم يشك فيها ويرتاب فيما يحدث فهو حتما حمار أحمق.

***

كان الكلبـان بانتظارهمـا هنـاك أمـام مدخـل الوحـدة الصحيـة. تومـي وريتشـي كمـا تدعوهمـا سـارة. رمقهمـا فتحـي بحـذر فـي الوقـت الـذي نظـر إليـه الكلبـان فـي تحفـز. إنهمـا يكرهانـه أو ربمـا لا يـروق لهمـا. شـعر بهـذا، وإن كان السـؤال هـل تعكـس مشـاعرهما مشـاعر سيدتهما الغامضة نحـوه.

هـل تكـن لـه تلـك الفاتنـة المريبـة الكراهيـة أسـفل هـذا القنـاع الباسـم فـي وجههـا؟

حيته سارة وهي تبتعد مع الكلبين قائلة:

-إلى اللقاء يا دكتور عبد الوهاب. أراك في الغد.

أجابها ملوحا في فتور:

- إلى اللقاء.

ببـطء تحـرك نحـو الداخـل. وفـي غرفـة الملاحظـة كانـت عايـدة بانتظـاره. قالـت فـور أن رأتـه:

- أريدك هنا يا دكتور.

دلـف للحجـرة فـي وجـوم. كانـت تقـف بجـوار المريـض المحتضـر وجهـاز محلـول موصـل إلـى جسـده. تجاهـل الرائحـة الخانقـة وغمغـم:

- ماذا هناك؟

- المحلول يرفض النفاذ في أوردته.

نظر للمحلول المعلق، وهو يغمغم:

- ربما كانت الكانيولا بحاجة لتسليك.

-فعلت كل هذا، بل وقمت بتركيب واحدة أخرى غيرها. رغم هذا فالمحلول لا يسرى إلى جسده.

هل مات؟ بالطبع لا، وإلا ما معنى تلك الانفاس الواهنة التي لا زالت تتردد في صدره. تفقد النبض في أطرافه الأربعة. ثم التقط السماعة وراح يستمع إلى قلبه وصوت أنفاسه.

ما زال حيا. نظر إلى المحلول في حيرة وهو يشعر بعجزه ثم هز كتفيه في عجز وقال وهو يغادر الغرفة:

- لست أدرى سبب هذا. لكنه لازال حيا.

سارت عايدة خلفه وهي تسأل.

- هل من اقتراحات أخرى؟

- أرى أن نتوقف عن المحاولة الآن. فقط عليك معاودة المحاولة مرة أخرى بعد ساعة او ساعتين. سأكون في حجرتي لو احتجت لي.

اتجه إلى حجرته وهو يستعيد أحداث اليوم الثقيل. ما الذي حل بتلك البلدة الغريبة؟

هل هو مرض فعلا. أم هي لعنة؟

ارتجف جسده وهو يرى أن كلا الاحتمالين ممكن. اتجه

إلـى الطاولـة الخشـبية وبـدأ فـي إعـداد بعـض القهـوة باسـتخدام السـبرتاية التـي أحضرهـا معـه مـن القاهـرة. كان بحاجـة لتنقيـة ذهنـه والقهـوة لا زالـت هـي المشـروب السـحري القـادر علـى فعـل شـيء عجيـب كهـذا. حيـن انتهـى مـن إعدادهـا صـب القهـوة بحـرص فـي كـوب زجاجـي صغيـر ليحتفـظ ب (الـوش) كمـا اعتـاد أن يشـربها، ثـم أشـعل سـيجارة وراح يرشـفها مـع القهـوة ببـطء، وهـو يتطلـع للبلـدة مـن خلـف زجـاج نافذتـه.

فكـر فـي الهـرب مـن كل هـذا. كان يكـره كل هـذا الغمـوض الـذي يحيـط بـه، وهـو الـذي اعتـاد الهـرب مـن كل مـا لا يفهمـه. لمـاذا لا يحـزم حقائبـه ويعـود مـرة أخـرى للقاهـرة. لكـن السـائق الـذي أتـى بـه إلـى هنـا لـن يعـود قبـل عشـرة أيـام كمـا أخبـره.

هذا بالطبع لو عاد.

نبـض قلبـه وهـو يتخيـل أن يتخلـى عنـه ناصـر البربـري. احتمـال آخـر مخيـف. هـل معنـى هـذا أن يبقـى هنـا للأبـد، أو علـى الأقـل حتـى تأتـي مركبـة أخـرى للبلـدة. كلا. لابـد أن هنـاك وسـيلة مـا للخـروج مـن هـذا المـكان اللعيـن. أشـعل سـيجارة جديـدة، لكنـه لـم يدخنهـا خلـف النافـذة. كانـت قدمـه المصابـة تؤلمـه فـي تلـك اللحظـة فاتجـه إلـى طـرف الفـراش وجلـس عليـه ليريحهـا.

المثيـر للسـخرية أنـه أختـار هـذا المـكان النـاء وهـو يعتقـد أنـه يبتعـد فيـه عـن كل مشـاكله وهمومـه. يبتعـد عـن

ذكريات الحرب المقيتة. عن أشباح رفاقه الموتى، وعن حبيبته التي خذلته وتركته. لكنه لم يكن يدري أنه سيصبح كالمستجير من النار بالرمضاء. لقد رافقته كل همومه السابقة وأشباح اصدقاءه القتلى إلى دير النعمان، وفوق ذلك كان عليه أن يواجه كل تلك الأمور الغامضة المخيفة.

مع آخر انفاس سيجارته رفع رأسه نحو الخزانة الخشبية وهناك رأى الصندوقين الورقيين اللذين تركهما الطبيب السابق كما يبدو. صندوق كبير وبجواره آخر أصغر بكثير.

ما الذي بداخلهما يا ترى؟

ربما كانت المزيد من الكتب.

من الغريب أن يتنازل أي شخص عن مثل هذا الكنز من الكتب وأن يرحل ويدعه خلفه. هذه حماقة لن يقترفها فتحي أبدا.

قرر أن الوقت قد حان ليتفقدهما. اتجه إلى الصندوق الكبير أولا، كان ثقيلا للغاية، وبعناء شديد نجح في إنزاله من فوق الخزانة. كان هناك الكثير من الغبار العالق به كالصندوق الأول، مسحه بمنديله وفكر في فتحه قبل ان يعدل ويقرر إنزال الصندوق الأصغر الأخير أولا. بسهولة حمل الصندوق الصغير ومسحه هو الآخر بالمنديل ثم قرر فتحه أولا. لدهشته وجد أنه يحتوي على ملابس. الكثير من الملابس في الواقع. ملابس داخلية وأخرى

خارجيـة.

هل تعود هي الأخرى للطبيب الذي كان هنا قبله؟

لـو كان هـذا صحيحـا فهـذا لغـز آخـر. قـد يتـرك المـرء كتبـه خلفـه حيـن يغـادر مـكان مـا، لكنـه لـن يرحـل حتمـا تـاركا ملابسـه، وبخاصـة تلـك الملابـس الداخليـة والتـي بـدت كأنهـا غيـر مهترئـة أو قديمـة ليتركهـا أي شـخص وراءه. أخـرج كل الملابـس مـن الصنـدوق فوجـد أسـفلها سلسـة بهـا بعـض المفاتيـح وحافظـة جلديـة. وحيـن فتـح الحافظـة عثـر بداخلهـا علـى بطاقـة شخصية وبضـع قصاصـات ونحـو عشـرة جنيهـات ورقيـة وبعـض الفكـه. رفـع البطاقـة الورقيـة وقـرأ مـا بهـا.

- أشرف سمير الدمرداش.

كانـت بالبطاقـة الشـخصية صـورة غيـر ملونـة لشـاب بديـن قصيـر الشـعر ذو شـارب رفيـع. كان مـن مواليـد **1935م**، كمـا هـو مـدون بهـا، أي أنـه كان أكبـر منـه بنحـو ثـلاث سـنوات. كان أعزبـا وكانـت المهنـة المدونـة فـي البطاقـة هـي طبيـب بشـري.

إنـه حتمـا الطبيـب الـذي سـبقه. الطبيـب الـذي كمـا يـرى تـرك كل أغراضـه ورحـل. تـرك ملابسـه وبطاقته الشـخصية ونقـوده وكتبـه.

هل يفعل أي رجل عاقل شيء كهذا إلا لسبب جلل؟

بالطبع لا.

اقشعر بدنه وهو يفكر في الاحتمالات الأخرى. هل رحل أشرف عن هذا عن المكان بغتة حتى أنه لم يستطع جمع كل حاجاته قبل أن يذهب.

ربما حدث هذا لو كان يهرب من شيء ما؟

كان هناك احتمال آخر قد يفسر تركه لأغراضه، احتمال مخيف للغاية.

هل قُتل؟!

احتمالان مخيفان! وعليه أن يعرف أيهما قد حدث، فمع كل لحظة يقضيها في هذا المكان يكتشف المزيد من الألغاز المخيفة.

خلف النافذة بدأت السماء تظلم قليلا وقد عادت السحب للتراكم. قرر أن يترك مخاوفه وحيرته مؤقتا وأن يفعل ما كان يفعله قديما حين كان يشعر بالتوتر والحيرة. أن يقرأ رواية خفيفة ليتوه في عوالمها وينشغل بها ولو قليلا عن هواجسه. اختار كتاب وجده في أغراض أشرف. كانت رواية «بداية ونهاية» لنجيب محفوظ. لم يكن قد قرأها من قبل، فتح الرواية وجلس فوق الفراش وأشعل سيجارة أخرى وبدأ القراءة. ببطء كان عقله ينسحب مما حوله ويتوه في ذلك العالم الآخر المثير الذي يجيد نجيب محفوظ صناعته.

حين وصل للصفحة الأربعين وجد قصاصة ورقية مطوية على نفسها بين الصفحات. فضها ببطء وترقب

وهـو يحـاول تخميـن المـدون فيهـا، هـل هـي ملاحظـات حول الكتـاب أم خواطـر خطهـا الدكتـور أشـرف.

لكـن المـدون فيهـا لـم يكـن ملاحظـات او خواطـر كمـا ظـن فتحـي، كانـت فقـط كلمـة واحـدة بخـط صغيـر رديء:

- اهرب.

ثـم انتبـه إلـى أنـه ليـس وحـده فـي الغرفـة فـي تلـك اللحظـة، فحـول الفـراش مـن الناحيتيـن كان هنـاك رفاقـه القدامـى قـد عـادوا ثانيـة وابتسـامة سـاخرة ترتسـم علـى وجوههـم، ارتعـش جسـده مـن هـول المفاجـأة، ثـم تكلـم الجميـع مـرة واحـدة فـي صـوت واحـد، قائليـن:

- أجل أيها الأحمق. اهرب

***

(11)

قـرب المسـاء اكتشـف انـه قـد اسـتهلك أكثـر مـن علبتيـن من سـجائره فـي جلسـته تلـك. ظـل الكتـاب أمامـه علـى نفـس الصفحـة الأربعيـن دون أن يقـرأ حرفـا واحـدا فيـه بعدمـا قـرأ القصاصـة التـي تدعـوه للهـرب.

كان الظـلام يتقـدم فـي السـماء حثيثـا مـن بعيـد خلـف النافـذة، وسـاعدت السـحب المتراكمـة علـى حجـب الشـمس الغاربـة فجـاء المسـاء مبكـرا. أفـاق فتحـي مـن شـروده علـى صـوت دقـات خفيفـة علـى البـاب. انتفـض فـي رعـب وكاد أن يصـرخ فـي فـزع: «مـن هنـاك؟»، لكنـه تمالـك نفسـه بسـرعة وقـد خمـن أن القـادم هـو عبـد النبـي حتمـا وقـد جـاء ككل ليلـة حامـلا العشـاء. تحـرك نحـو البـاب وفتحـه. كان عبـد النبـي بالفعـل وقـد تـرك صينيـة العشـاء أمـام البـاب وشـرع فـي هبـوط السـلم. رفـع صوتـه مناديـا:

-لحظة من فضلك يا عبد النبي. أود التحدث إليك.

رمقـه عبـد النبـي للحظـة فـي صمـت ثـم تحـرك عائـدا للغرفـة، لكنـه لـم ينـس حمـل صينيـة الطعـام معـه لداخـل الغرفـة. أشـار فتحـي الـى الطاولـة وهـو يقـول:

-ضعها هنا من فضلك.

وضـع عبـد النبـي الطعـام حيـث أشـار ثـم التفـت اليـه ووقـف يرمقـه صامتـا، ابتسـم فتحـي لـه وقـال:

- أعلـم أنـك لا تتحـدث، لكـن يمكننـي فهـم لغـة الإشـارة بصـورة كبيـرة لحسـن الحـظ. كان ابـن عمـي أبكمـا اصمـا وكانـت وسـيلة التواصـل الوحيـدة معـه هـي الإشـارة.

ظـل عبـد النبـي يرمقـه دون أن يبـدو علـى وجهـه أي تعبيـر. فقـط عيـون ثابتـة موجهـة لـه ولا ترمـش. لكـن فتحـي لـم ييـأس، كان بحاجـة لمـن يمنحـه الإجابـات فـي تلـك اللحظـة وكان عبـد النبـي هـو كل مـا يملـك. لـذا امسـك علبة سـجائره وأخـرج سـيجارة وقدمهـا لـه:

- هـل ترغـب فـي تدخيـن سـيجارة. يمكنـك أخـذ سـيجارة، أو حتـى العلبـة كلهـا لـو شـئت.

لكـن عبـد النبـي واصـل الصمـت والجمـود، أشـعل فتحـي سـيجارة فـي عصبيـة وقـال وهـو يضعهـا فـي فمـه:

-أنت من أهل هذه البلدة اليس كذلك؟

هـذه المـرة هـز عبـد النبـي رأسـه موافقـا، فانـدفـع فتحـي قائـلا فـي سـرعة:

-إذا لا بـد أنـك تعلـم سـر مـا يـدور فيهـا مـن أمـور غامضـة غريبـة، أخبرنـي مـاذا يحـدث هنـا أرجـوك، لمـاذا ينـام سـكان البلـدة بالنهـار ويسـتيقظون بالليـل، ومـا سـر تلـك الرائحـة الغريبـة العالقـة بالجميـع، هـل أصـاب البلـدة وبـاء أو مـرض جعلكـم هكـذا، ومـن هـي سـارة ومـا الـذي تفعلـه هنـا؟ أخبرنـي بـاللّه عليـك مـا سـر كل هـذا العبـث؟ أخبرنـي قبـل أن أصـاب بالجنـون.

راقبـه عبـد النبـي دون أن يظهـر علـى وجهـه أي تعبيـر، فصـرخ فتحـي:

-لمـاذا لا تتكلـم أنـت الاخـر. لمـاذا تصمـت. أخبرنـي أيهـا الغبـي أيهـا الأحمـق. هـل تدبـرون مكيـدة لـي هنـا؟

هـذه المـرة تحـرك عبـد النبـي وغـادر الغرفـة فـي خطـوات ثابتـة دون أن يلتفـت إلـى الطبيـب الـذي ظـل يصـرخ:

- كلا، انتظـر لـم انتهـى مـن حديثـي ولـم تمنحنـي أيـة إجابـة يـا عبدالنبـي. انتظـر ارجـوك.

لكـن صـوت خطواتـه وهـو يهبـط الـدرج هـو مـا وصـل لأذن فتحـي، راح يرتشـف الأنفـاس الباقيـة فـي لفافـة تبغـه فـي سـرعة وعصبيـة قبـل أن يلقيهـا أرضـا ويدهسـها فـي عصبيـة وكأنمـا يدهـس مخاوفـه معهـا. رمـق الطعـام بغيـر اشـتهاء ثـم تحـرك نحـو النافـذة. وهنـاك رأي أهـل القريـة بأجمعهـم فـي الخـارج، يحيطـون بالوحـدة الصحيـة فـي ثبـات وجمـود وفـي أيـدي أغلبهـم مشـاعل راحـت تتراقـص شـعلاتها مـع الريـاح الشـديدة. نظراتهـم لا حيـاة فيهـا. ولـولا تأكـده مـن كونهـم أحيـاء لشـك فـي أنهـم تماثيـل تحمـل مشـاعل.

شـعر بالخـوف. كلا لـم يكـن يشـعر الخـوف فقـط. بـل فـزع هائـل يكتنـف جسـده ويدفعـه للارتجـاف، وهـو يتخيـل أن يقتحـم كل هـؤلاء المـكان فجـأة للظفـر بـه، وبينمـا ارتعشـت عينـاه راح عقلـه يفكـر فـي عشـرات السـيناريوهات لمـا قـد يفعلونـه بـه، عشـرات الميتـات البشـعة تكفـل عقلـه حينهـا

بتخيلها.

هل يسحلونه حتى الموت، أم يقدمونه لحيواناتهم المفترسة لتمزقه بأنيابها.

قد يكونون أكثر رحمة ويقتلوه بطلقة رصاص في رأسه أو حتى طعنة سكين في القلب، وقد يحتجزونه في زنانة كئيبة ويتركوه فيها يتضور جوعا حتى الموت.

تذكر في تلك اللحظة التحذيرات التي طالما رددها القادة الكبار والضباط الصغار في الجيش من أهوال الهزيمة والوقوع في أسر القوات الصهيونية. أخبروهم أن اليهود لا يهتمون بالحصول على أسري، فالموت فقط هو مصير من يقع في أيديهم، أخبروهم أن طقوسهم الدينية تسمح لهم بامتصاص دماء الأسرى وهم أحياء بل وصنع الفطائر بدمائهم. ابتسم في تلك اللحظة وهو يتذكر كيف كان خيال قادته محدودا، فما قام به الإسرائيليون به مع أسراهم كان أكثر بشاعة بكثير. تذكر مطارداتهم للجنود العزل بمدرعاتهم ومروحياتهم وغربلة أجسادهم بالرصاص. تذكر الدبابات التي سارت فوق أجساد زملائه وهم احياء لتقتلهم بأبشع طريقة ممكنة وتدفنهم في مكانهم.

كان العدو أكثر شيطانية وكان الضباط أكثر بلاهة، ومن دفع الثمن كان الجنود.

كانت الرياح تعوي بالخارج وبدأت نذر المطر الأولى في الهطول. ومن بين الحشد تقدم نحو الوحدة الصحية

ثلاثة أشباح سرعان ما تبين أصحابها. إنه ذلك الصبي ومرافقاه. هل أتوا جميعا من اجل الرجل المريض، تذكر كيف رفضت أوردة الرجل المزيد من المحاليل المغذية ففكر أن أجله قد حان وربما أتوا لحمل جثمانه. تراجع للخلف ليتوارى في ظلام الغرفة. قرر ألا يغادر غرفته حتى يرحل هذا الحشد اللعين. كان قلبه يخفق في عنف شديد حتى راحت عظام صدره تنتفض في قوة. ومن الظلام من خلفه سمع الصوت الساخر:

-الطبيب الجبان.

علم قبل أن يلتفت من صاحب الصوت. إنه الصول إبراهيم مرة أخرى، التفت ليرى من بين دموع الخوف أشباح رفاقه وقد حضروا ثانية. كانوا يقفون في صفين متتاليين في الركن المظلم، وكأنما جاءوا ليكونوا شهودا على جبنه وفزعه. وسمع صوت الصول وهو يقول متحسرا:

-ماذا تفعل يا دفعة، الأعداء في منزلك وأنت تختبأ في فراشك يا لعار الرجال!

ضحك الكل في آن واحد. ضحكوا ساخرين مستهزءين. غطى أذنه بكفيه في قوة وهو يصرخ:

-كفى أيها الملاعين. اصمتوا جميعا. اصمتواااااا.

لكنهم لم يكفوا. فقط تقدم من الظلام صديقه سعيد المسيري ومازالت الفجوة التي نشأت في صدره وقتلته

موجودة وهمس في أذنه:

- حارب الأعداء يا فتحي. أنت لست جبانا لتختبئ في فراشك يا ولد العم.

ربما لم يكن فتحي جبانا بالفعل، لكنه لا يواجه هذه المرة عدوا بشريا مثله يحمل سلاحا في مواجهته. بل يواجه عدوا يجهل غرضه ودوافعه. كان فتحي يواجه خوفه هذه المرة. وفي أذنه وعقله دوت تلك العبارة:

- حتى لو كنت خائفا فسيظل هناك واجبك. هذه الوحدة الصحية هي مسكنك الآن وهناك مريض بحاجة لحمايتك او اهتمامك.

لا يدري هل سمع الكلمات الأخيرة حقا أم أنه صوت صدر من اعماقه ليذكره بواجبه. نهض من فوق الفراش وقرر الهبوط. ليرى بنفسه ما يحدث بالأسفل.

تحرك في الظلام وهبط الدرج المعتم. وفي الرواق بالطابق الأرضي كان مصدر الضوء الوحيد غرفة الملاحظة حيث كان هناك مريضه الوحيد. ربما كان مصدر الضوء المصابيح التي يشعلها عبد النبي كل ليلة وربما كانت المصابيح التي أتي بها اهل البلدة. بلغ الباب ونظر الى داخل الغرفة. كان الرجلان والصبي هناك. وعلى الفراش جلس المريض بعينين فقدتا أي بريق للحياة رغم الانفاس التي تتردد في صدره وتحركه صعودا وهبوطا، وبفزع لاحظ فتحي القرد الذي عاد. كان جالسا على فراش المريض فوق قدميه.

متمالكا نفسه بجهد قال بصوت مرتعش:

- ماذا تفعلون هنا؟

التفت الكل إليه. حتى القرد فعل وهو يرمقه بعينيه الصفراوين. تراجع فتحي للخلف في رهبة وأصدر القرد صوتا كالفحيح ثم هبط من فوق الفراش وتوارى خلف الرجلين. بينما قال الصبي:

-جئنا لنأخذه معنا ليعود لداره. إننا نشكرك على اهتمامك به أيها الطبيب، وحفاظك على حياته.

ابتلع فتحي ريقه في صعوبة وهمس:

-لكنه لا زال مريضا. لا أعتقد أنه من الصواب عودته للمنزل في وقت كهذا.

-كلا هذا يكفيه. سيكون في خير حال معنا.

ثم التفت الصبي إلى الرجلين الصامتين العجوزين وقال في لهجة آمرة غريبة:

-دعونا نرحل.

وأمام عينيه المذهولتين، نهض المريض المحتضر وكأنما دبت فيه قوة مفاجئة، وغادر الفراش دون مساعدة ليغادر الموكب الصغير المكان. تحرك الصبي في المقدمة، وتبعه الرجل المريض وفي الخلف الرجلان العجوزان الصامتان دوما. لم يغادر القرد معهم، وهذا أمر توقعه فتحي، كما علم أنه لن يجد القرد مختبئا في

مكان ما في الغرفة. بالفعل بحث عنه في كل مكان في الغرفة لكنه كان قد اختفى، وكأنما تبخر في الهواء.

غادر الصبي والرجال الثلاث باب الوحدة الصحية، ووجد فتحي نفسه يتبعهم والفضول والحيرة يعصفان به وهو يتساءل، إلى اين يرحلون؟!

شق الأربعة طريقهم في وسط الحشد الضخم من أهالي البلدة، بدت وجوه الرجال والنساء الجامدة في ضوء المشاعل التي تتراقص مع الرياح العاصفة من هولها كوجوه شياطين قادمة من سقر. تجمد المشهد تماما للحظات وكأنما تحول الجميع لتماثيل من حجر، ثم مرة واحدة بدأ الجميع في ترديد تراتيلهم الغامضة بأصوات غير مفهومة وبلغة منسية قديمة. في الواقع لو كان فتحي يعلم تلك اللغة لأدرك أن نشيدهم يقول:

آن للغريب أن يعود إلى الديار..

يقوده في الطريق القادم من عالم الظلال.

أعدي أيتها الأرض السمراء له مكانه القديم

وعلى الشمس أن تغيب فالسيد لا يهوى الضياء.

وعلى أبناء الليل الاستعداد لحضوره العظيم.

بدأت السماء في اسقاط المطر الغزير حين تحرك الحشد الضخم وبدأ في الرحيل. قرر فتحي أن يتبعهم هو الأخر. كان يعلم أن هناك سر غامض وراء كل ما يحدث، وقرر

فـي تلـك اللحظـة أن يعرفـه.

لكـن عيونـا أربـع وزمجـرة منـذرة أوقفتـه مكانـه. كانـا كلبين يبـرزان مخالبهمـا وأنيابهمـا فـي وجهـه. وكأنمـا يحذرانـه مـن مغـادرة المـكان واللحـاق بالحشـد الراحل.

كانا كلبين يعرفهما جيدا.

تومي وريتشي.

كلبي سارة.

وكانـت وظيفتهمـا فـي تلـك اللحظـة كمـا يـرى، منعـه مـن الخـروج.

***

(12)

غرقت الوحدة الصحية بعد رحيل أهالي البلدة في الظلام والصمت. حتى المصباح الزيتي الذي كان مضاءا في غرفة الملاحظة وجده فتحي مطفئا لسبب لا يفهمه. وبيد ترتجف أشعل فتحي عود ثقاب ليقوده ضوؤه الضعيف نحو غرفته بالأعلى. راحت الظلال على الضوء اللهبي الخافت لعود الثقاب تتراقص على الأرض والجدران في أشكال غامضة مخيفة. ورغم أنه لم يكن الرجل الجبان من قبل ولم يخف الظلام أبدا، إلا أنه في تلك اللحظة راح يتلفت حوله في جنون وكأنما يخشى أن تجذبه من قلب الظلام مخالب شيطانية أو يختطفه مردة من الجان.

بلغ منتصف السلم الخشبي فانتهى عود الثقاب. وعاد الظلام ليغرقه تماما. وبدلا من أن يواصل الصعود دفعه هاجس غريب للوقف مكانه وهو يشحذ أذنيه. سمع صوت شيء يزحف في الظلام. وكان الأمر المرعب أن صاحب هذا الصوت كما يبدو كان يقترب منه. في اللحظة التالية همس صوت بالقرب من أذنه:

- اصعد أيها الطبيب. الظلام هنا غير آمن.

صرخ بقوة في رعب. وكادت قدمه المصابة أن تخونه ليسقط من فوق الدرج. لكنه أمسك بحاجز السلم بقوة واستجمع قواه وراح يعدو صاعدا. ارتطمت كفه بجدار ما.

وكادت قدمه أن تتعثر بغرض ملقى على الأرض. لكنه لم يتوقف للحظة. واصل الطريق في الظلام نحو حجرته. كان باباها مفتوحا. دلف الحجرة بسرعة ثم أغلق الباب من خلفه. ورغم الظلام إلا أن الضوء الخافت القادم من النافذة جعل الرؤية ممكنة داخلها. لاهثا تحرك نحو النافذة التي راحت الأمطار تضربها بلا هوادة. ومن بعيد ظهرت مشاعل أهل البلدة وهي تبتعد. شعر بالدهشة حين عرف إلى أين يذهبون. لم يكن الحشد متجها نحو القرية. بل إلى طريق آخر يعرفه جيدا لأنه ببساطة اتخذه مع سارة هذا الصباح.

كانوا يتجهون نحو المقابر.

في الضوء الخافت كانت أشباح رفاقه موجودة من حوله. لكنه تجاهلها وساعده على هذا أنهم صمتوا تماما ولم يوسوس أحدهم في أذنه برأيه. حاول إشعال سيجارة، لكنه سعل بقوة وهي ترتعش بين شفتيه. ألقاها دون أن يكملها أسفل قدمه وراح يدهسها بعنف زائد. أدرك أنه لن ينعم بالنوم أو الراحة في هذه الليلة أو الليالي القادمة ما لم يعلم ما الذي يحدث في دير النعمان؟ كان الحل الوحيد لمعرفة ما يحدث بحاجة للكثير من الشجاعة والكثير من التهور.

عليه أن يتبع أهالي القرية.

وماذا عن الكلبين الرابضين أمام الباب اللذين ينتظران تمزيقه لو فكر في المحاولة؟

- نافذة المعمل يا دكتور فتحي. هل نسيت؟

جاءه الجواب هامسا من الركن البعيد. كان صوت الرائد محمد شريف، قائد وحدته العسكرية الشجاع. ومن حوله نظر إليه الرفاق الموتى القدامى في ابتسامة لم يفهم إن كانت تشجعه على القيام بمحاولته المتهورة، أم تسخر منه لأنه يفكر فيها؟

قرر القيام بهذا العمل المتهور، وتحرك نحو الباب على الفور في خطوات سريعة بعد أن ارتدي معطفه الجلدي ليقيه البرد والمطر، تحرك بسرعة وإصرار وكأنما يخشى أن تفارقه تلك الشجاعة التي تجري في دمه الآن لو انتظر في غرفته لبعض الوقت. لم يشعل المصباح النفطي الصدئ، واكتفى بعود ثقاب وهو يهبط السلم. اتجه مباشرة نحو حجرة المعمل وفتح النافذة الوحيدة فيها. كانت تطل على الناحية الخلفية من الوحدة الصحية. وحين أطل برأسه خارجها حمد اللّه على انها لا ترتفع عن الأرض بأكثر من متر ونصف كي تتحمل قدمه المصابة تلك القفزة.

رفع جسده عبر النافذة وفي اللحظة التالية كان بالخارج وقد غاصت قدماه في الرمال المبتلة بالمطر. توقف للحظة متجمدا في مكانه رغم القشعريرة الهائلة التي اجتاحت بدنه بفعل الهواء البارد الذي يضرب جسده والمطر الغزير الذي يهوى فوق رأسه. كان بحاجة ليتأكد أن الكلبين لم يشعرا به. من حسن حظه أن اتجاه الريح كان يدفع رائحته في اتجاه معاكس للوحدة الصحية لن

يساعد هذا الكلبين على اقتفاء أثر رائحته، كما أنه من العسير عليهما سماع الضجة التي أحدثها هبوطه وهو في الناحية الأخرى من المكان. بعد نحو الدقيقة تحرك من مكانه مسترشدا بالنور الضعيف القادم من السماء.

كان الجو عاصفا وراحت الريح تدفعه بعنف بينما تغوص قدماه كثيرا في الرمال الهشة الموحلة مع كل خطوة يخطوها. اضطر للدوران من بعيد حول الوحدة الصحية ليصل للطريق المؤدي للمقابر. ثم راح يتحرك بصعوبة في خطوات سريعة ليلحق بالجمع الذي اختفى أثره. البرد الشديد كاد أن يجمد أطرافه والمطر الغزير راح يغشى عينيه مما اضطره لأن يمسحها بباطن كفه طوال الوقت. كان قلبه يلهث هو الأخر وكأنما يحتج على تلك المحاولة الخرقاء التي يقوم بها. لكنه كان مصرا على معرفة الحقيقة.

من بعيد بدأت الشعلات النارية في الظهور. وبعد قليل ظهرت في الظلام وسط الرياح والمطر أشباح حامليها. تحرك بصعوبة وسط الرمال المبتلة وهو يتبعهم من بعيد كي لا يشعروا به، مضى بعض الوقت ثم توقفوا وقد وصلوا إلى منطقة المقابر كما خمن.

توقف هو الآخر مفكرا للحظة في الخطوة القادمة. هل يقترب منهم أم يكتفي بمراقبتهم من بعيد؟

آثر السلامة واتخذ طريقا جانبيا يقود لمرتفع صخري يطل على المكان كله من ناحية الشرق. من هناك

يمكنـه أن يراقـب مـا يحـدث دون أن يشـعر أحـد بـه.

تذكـر حديـث سـارة وهـي تحـذره فـي الصبـاح مـن الرمـال المتحركـة التـي تحيـط بالمـكان. لـو وقـع فـي فخهـا فهـو هالـك بـلا شـك. لـن يفلـح حينهـا فـي التصـرف بعقـل، ولـن يجـد الحكمـة التـي تجعلـه يسـتلقي علـى ظهـره فـوق الرمـال فـي هـدوء لترفـع جسـده ويسـبح فوقهـا كمـا تقـول الكتـب. بالطبـع كل هـذا هـراء لا يتحـدث بـه إلا المغامـرون أو الأفاقـون ولا يصدقـه غيـر الحمقـى.

لم يبق أمامه غير أن يدعوا اللّه ألا يصادفها.

بعـد بضـع دقائـق وصـل إلـى تلـك المنطقـة الصخريـة المرتفعـة. راح يلهـث وهـو يبحـث عـن مـكان مناسـب ليختبـأ فيـه ويراقـب منـه مـا يـدور حولـه دون أن يشـعر بـه أهالـي ديـر النعمـان. وجـد بقعـة بيـن صخرتيـن ضخمتيـن تحجبيـن الكثيـر مـن الريـاح العاصفـة والمطـر، وتتيحيـن لـه زاويـة رؤيـة ممتـازة. انحنـى وخبـأ أكثـر جسـده بيـن الصخرتيـن ثـم راح يراقـب الحشـد الملتـف حـول المقابـر والبئـر القديـم فـي نصـف دائـرة. بـددت المشـاعل التـي يحملهـا الكثيـرون منهـم الكثيـر مـن ظـلام الليـل، ورغـم الريـاح التـي راحـت تعـوي بعنـف فـي هـذا العـراء والسـماء التـي ازداد غضبهـا فراحـت تصـب ماءهـا فـوق رؤوس الجميـع صبـا فلـم يبـد علـى أحـد مـن الأهالـي أي آثـر لهـذا. كانـوا يقفـون فـي جمـود كتماثيـل مـن الصخـر.

غمغم فتحي في سره:

-ما الذي ينتظره هؤلاء، وماذا يفعلون في المقابر؟

علـم فتحـي أن الجـواب قـد يكـون مخيفـا، بأكثـر ممـا قـد يتخيـل.

مضـت بضـع دقائـق أخـرى دون أن يتغيـر أي شـيء، ثـم سـطع البـرق فـي السـماء. أضـاء العالـم كلـه للحظـات قليلـة، ثـم عـاد الظـلام وقـد دوى الرعـد كضربـات ملاييـن المطـارق. لكنها كانـت كافيـة لتبـث المزيـد مـن الرعـب فـي قلـب فتحـي.

هـذه المـرة رأى كل مـا يحـدث بصـورة واضحـة للمـرة الأولى. الوجـوه الآدميـة الجامـدة والتـي اكتسـت مسـحة شـيطانية، وعشـرات بـل مئـات الحيوانـات التـي وقفـت بيـن أقـدام الحشـد الغفيـر. فـي جمـود مماثـل. كانـت حشـدا هائـلا مـن الذئـاب والـكلاب وبنـات أوى. حشـد مـن المسـتحيل أن يجتمـع هكـذا فـي مـكان واحـد. لكـن الأكثـر رعبـا فهـو فوهـة البئـر التـي بـدأ ضـوء أحمـر ينبعـث منهـا وكأنمـا أشـعل لسـان البـرق نـارا غامضـة داخلهـا.

ثم بدأت الطبول تدوي.

***

(13)

كان الأمر كالكابوس.

في البداية اندفعت هبة عاصفة من الرياح الباردة ثم اشتعل لسان ضخم من اللهب في صفحة السماء للحظات. بدا وكأن الطبيعة غاضبة لما يدور أو تحتفل بما يحدث. لا يعلم فتحي ما الحقيقة لكنه في تلك اللحظة كان يشعر بالذعر، ولولا بعض الفضول في نفسه لولى دبره هاربا.

صرخت بنات آوى كلها في نشيد جنائزي حزين، وعوت الذئاب معها في عواء منذر، ثم أتى دور البشر. رفع الكل رأسه نحو السماء وفي صوت واحد بدأوا في ترتيل نشيد غير مفهوم بلغة قديمة منسية. نفس أنشودتهم الغامضة التي رددوها أمام الوحدة الصحية في الليل.

بالطبع كان وقع النشيد في نفس فتحي مخيفا. وككل مرة كان يتساءل، أي لغة هذه؟

كانت لغة قديمة لم يعد أحد من البشر يتذكرها الآن. لغة قديمة سبقت الهيروغليفية بعقود طويلة. لغة تعلمها بعض البشر من كائنات سكنت العالم قبله. ولو كان فتحي يعرف معناها لزاد هلعه كثيرا ولما بقى في مكانه لحظة واحدة.

كان يجهل ما يقال. وكان هذا من حسن حظه.

ازداد الضوء الأحمر القادم من أعماق البئر شدة، وصعد رويدا رويدا ليبلغ السحب كعمود من نار. ومن قلب الوهج انفصلت أشباح آدمية بدت في البداية وكأنها مخلوقات من نار، لكنها وفور ابتعادها من ضوء البئر كانت تتحول لأشكال آدمية. كانوا رجالا حليقي الرؤوس. يرتدون ثيابا ناصعة البياض. تذكر فتحي تلك الهيئة التي شاهدها على جدران المعابد في الأقصر حين زاها وهو في الصف الثالث في الجامعة. كانت رحلة تثقفية تحملتها وقتها وزارة الإرشاد القومي لحث الشباب على معرفة تاريخ مصر القديمة والتعلق بأمجاده.

احتشد الكهنة في صفين حول البئر. وارتفع صوت التراتيل التي يرددها أهالي دير النعمان وكأنهم يرحبون بالقادمين. ثم هوى من السماء لسان من البرق نحو فتحة البئر قبل أن يختفي في جوفه. مضت لحظات ثم ظهر من قلب البئر شبح آدمي جديد. لم يميزه فتحي في البداية وظن في البداية أنه كاهن شبحي آخر. لكنه فور أن تحرك بين صفي الكهنة علم أنه لأنثى. أنثى لا تنتمي لهذا البلد ولا تتحدث لغة هذا البلد. أنثى قادمة من بلاد اجنبية تقع خلف البحر المتوسط.

كانت سارة.

وكانت ترتدي ثوب الكاهنات هي الأخرى، وقد التفت حول عنقها قلادة ضخمة من الذهب.

وبعينين لا تصدقا ما تراه رأى فتحي جميع الكهنة

يركعـون لهـا فـي خضـوع وهـي تسـير بينهـم كإحـدى الملـكات القدامـى. تحركـت لبضـع أمتـار مبتعـدة عـن البئـر ثـم التفتـت للـوراء نحـو البئـر وتوقفـت فـي جمـود. فـي تلـك اللحظـة تجمـد المشـهد تمامـا. توقفـت دقـات الطبـول القادمـة مـن مـكان مجهـول، ومعهـا توقفـت التراتيـل، وكفـت الحيوانـات عـن العـواء. بينمـا التـف الكهنـة جميعهـم نحـو فتحـة البئـر.

تساءل فتحي في رعب ما الذي ينتظره هؤلاء؟

ثم أتت الإجابة المرعبة.

اختفـى الضـوء الأحمـر الدمـوي القـادم مـن جـوف البئـر فعـاد الظـلام. ورغـم هـذا تمكـن فتحـي مـن رؤيـة الدخـان الكثيـف الـذي راح يصعـد مـن قلـب البئـر ويتكاثـف فـي بطء ليتشـكل فـي هيئـة مخلـوق عمـلاق مصنـوع مـن دخـان مظلـم. كان طولـه يناهـز الأمتـار الثلاثـة طـولا، ورغـم كل هـذا الظـلام اسـتطاع فتحـي ان يتبيـن كيـف يبـدو هـذا المـارد، رأي الأطـراف الطويلـة والعنـق الطويـل الـذي ينتهـي بـرأس كلـب. ومـن بقعـة مظلمـة فـي عقلـه الباطـن راح خاطـر يلـح عليـه أنـه يعـرف مـن يكـون.

ركـع الجميـع أمـام ذلـك المـارد. وارتفـع العـواء المشـترك لبنـات آوى والذئـاب معـا. مضـت نحـو الدقيقـة علـى هـذا الوقـت ثـم كانـت سـارة أول مـن نهـض مـن الجميـع. تحركـت نحـو الرجـال وأمسـكت بالشـعلة التـي فـي يـده ثـم تحركـت نحـو الصخـرة الضخمـة المليئـة بالنقـوش القديمـة ومسـت

الأرض بالمشعل فاشتعلت فيها النار على الفور رغم البلل والمطر والرياح العاصفة، وصنعت دائرة عظيمة من اللهب. وعلى ضوء اللهب بدا العملاق واضحا هذه المرة تماما.

الجسد الضخم الأسود بعضلاته البارزة، والقدمان المشعرتان المقوستان من الركبة للخلف كأقدام الحيوانات، والرأس الشبيه برأس كلب والعينان الصفراوان المتوهجان في ضوء النار. ظل المارد جامدا في مكانه كالتماثيل، بينما تراجع أتباعه للوراء وعادوا ليرددوا ترانيمهم الغامضة في صوت أعلى، وصوت الطبول الغامضة يرتفع مع تراتيلهم هو الآخر.

نقل فتحي عينيه نحو المنصة الحجرية التي تتوسط دائرة النار، فشاهد للمرة الأولى الجسدين الراقدين فوقها متجاورين. جسد الصبي وجسد العجوز المحتضر. كانا عاريين تماما من ملابسهما رغم البرد الشديد. تحركت سارة نحو دائرة النار واخترقتها دون أن يبدو عليها التردد أو الخوف. لم تمسها النار بأي سوء. ارتفعت التراتيل أعلى وأعلى. ومن مكانه أدرك فتحي ما يدور حوله.

إنها طقوس وثنية أو شيطانية.

راحت سارة ترقص حول النصب الحجري، في رشاقة وليونة غريبة. مضى الوقت طويلا قبل أن تنتهي رقصتها الغريبة التي ذكرته بما يقرأه عن رقصات النساء في

أحـراش افريقيـا عنـد إقامـة طقوسـهم السـحرية.. رفـع المـارد يـده عاليـا للمـرة الأولـى وأشـار بإصبـع أسـود طويـل نحـو الصبـي. هنـا صمـت الـكل بينمـا تحـركـت سـارة نحـو الجسـد الصغيـر الراقـد فـوق ظهـره فـي سـكون، وقفـت أمامـه فـي جمـود للحظـة ثـم رفعـت يديهـا ليبـدو فـي كفهـا خنجـر طويـل مقـوس.

هنـا سـطع البـرق مـرة جديـدة وهـي تهـوي بـلا تـردد نحـو قلـب الصبـي.

صرخ فتحي في ذعر في صوت لم يتجاوز فمه:

-لا تفعليها.

لكنها فعلتها بلا تردد.

وسـطع البـرق ثانيـة ليـرى فتحـي نافـورة مـن الدمـاء تندفـع مـن قلـب الصبـي لبضـع سـنتيمترات فـوق جسـده. وفـي اللحظـة التاليـة نهـض العجـوز المحتضـر فـي نشـاط. ورفـع عقيرتـه نحـو السـماء وبمفـرده بـدأ فـي ترتيـل النشـيد الوثنـي.

ردد الباقـون خلـف العجـوز الأنشـودة الغامضـة، لكـن سـارة لـم تتوقـف. تحـركـت نحـو العجـوز ولوحـت بخنجرهـا الغريـب فـي الهـواء، ثـم أمسـكت شـعر الرجـل بيدهـا الحـرة وأمالـت رأسـه للخلـف، فتـح العجـوز فمـه ومـد لسـانه خـارج فمـه، وبـلا تـردد هـوت سـارة بالخنجـر نحـو اللسـان الممتـد أمامهـا فقطعتـه. صرخـت الجمـوع فـي جنـون، وانطلـق واحـد مـن

بنـات آوى نحـو اللسـان المقطـوع والتهمـه علـى الفـور. وفـي اللحظـة التاليـة اندفعـت باقـي بنـات آوى نحـو جثـة الطفـل القتيـل وراحـت تنهشـها فـي ضـراوة.

كان هـذا أكبـر مـن أن يحتملـه فتحـي. قـرر الهـرب مـن هـذا المـكان الدمـوي الملعـون.

كلا، لـن يهـرب مـن هـذا المـكان فقـط. بـل سـيهرب مـن البلـدة كلهـا.

وقبـل أن يتحـرك سـمع صـوت غريـب الطويـل رفيقـه وهـو يقـول:

-رأيـت مـا يكفـي يـا فتحـي، حـان وقـت الهـرب يـا صديقـي قبـل أن يشـعروا بك.

شـهق فـي فـزع هـذه المـرة بصـوت مرتفـع والتفـت للخلـف بسـرعة. لـم يـر شـبح أحـد مـن رفاقـه، لكنـه رأي القـرد، ذا العيـون الصفـراء وهـو يراقبـه فـي غضـب حقيقـي.

هـب مـن مكانـه فـي رعـب وتراجـع بجسـده للخلـف دون ان يبعـد عينيـه عـن القـرد الشـيطاني وهـو يتوقـع أن يهاجمـه او ينبـه ذلـك الحشـد الشـيطاني إلـى مكانـه. لـو طـاردوه فلـن يتوانـوا بـلا شـك عـن قتلـه وتقديمـه كقربـان جديـد لذلـك المـارد الشـيطاني.

تراجـع فـي الظـلام أمـام القـرد بضـع خطـوات قبـل أن تتعثـر قدامـاه فـي حجـر مـا، ليهـوي مـن فـوق المـكان المرتفـع وجسـده يتدحـرج علـى الأرض فـي سـرعة وعنـف مؤلـم.

راح جسـده يتدحـرج هابطـا للحظـات قبـل أن يسـتقر فـوق طبقـة هشـة مـن الرمـال، حـاول أن ينهـض ليواصـل الهـرب لكـن جسـده بـدأ فـي الغـوص داخـل الرمـال، ليـدرك فـي رعـب أنـه وقـع فـي بحـر مـن الرمـال المتحركـة.

حـاول أن يتمالـك نفسـه وأن يسـتعيد هـدوءه وألا يقـوم بـأي حركـة غيـر ضروريـة كـي لا يغـوص أكثـر فـي الرمـال، ورغـم هـذا ظـل جسـده يغـوص ببـطء.

أدرك أنهـا النهايـة هـذه المـرة. سـيموت فـي قبـر لـن يعلـم مكانـه أحـد. تذكـر أمـه ورفاقـه الذيـن ظهـرت اشـباحهم مـن حولـه الآن وهـم يرمقونـه فـي هـدوء وكأنمـا ينتظـرون موتـه.

اختفـى جسـده كلـه فـي قلـب الرمـال ولـم يبـق غيـر رأسـه وعنقـه.

ثـم رأي سـارة علـى حافـة الرمـال المتحركـة وهـي ترمقـه فـي جمـود فـي زيهـا الفرعونـي القديـم وقلادتهـا الذهبيـة تلمـع فـوق صدرهـا، قبـل أن تقـول:

-لقد حذرتك من الرمال المتحركة. ألم أفعل؟

وظلـت فـي مكانهـا تراقبـه فـي هـدوء ورأسـه يغـوص ببـطء فـي قلـب الرمـال.

ثم جاء الظلام

***

(14)

حين أفاق لم يكن الظلام الذي توقعه هو أول ما رآه.

كان هناك ضوء ساطع.

ضوء صباح مشرق.

نظر فتحي حوله في حيرة وهو يتساءل هل يرى الموتى نورا في ظلمات القبور بعد الوفاة، قبل ان يدرك أنه لا زال في حجرته في الوحدة الصحية.

آخر ما يتذكره كان غرقه في بحر الرمال، الهواء وهو يغادر صدره، والظلام يملأ عينيه، وهو يجاهد بيأس ليكتم أنفاسه قبل أن تنهار مقاومته لتملأ الرمال الناعمة فمه وأنفه ورئتيه ومعها ذهب وعيه للأبد كما توقع.

نهض من فوق الفراش في حيرة وهو يتساءل كيف عاد ثانية إلى هذه الغرفة.

وجد نفسه يفكر في احتمالين.

الأول أنه قد مات بالفعل وأنه قد تحول إلى شبح، مثلما صار رفاقه في وحدته العسكرية أشباحا. لكنه في الصباح كما يرى ومن النادر أن يرى أشباحهم في ضوء النهار. كان بحاجة لأن يتأكد من هذا الاحتمال. تحرك نحو الطاولة الخشبية في حجرته وأمسك بشفرة حادة يستخدمها في حلاقة ذقنه ثم شق بحدها باطن أحد أصابعه.

كان الألـم عنيفـا، فأطلـق صرخـة، وهـو يراقـب خيـط الـدم الـذي تفجـر مـن إصبعـه. كتمـه بباطـن كفـه الأخـر وقـد تأكـد أنـه لا زال حيـا. الأشـباح لا يتألمـون ولا تدميهـم الجـروح بالطبـع.

تحـرك نحـو النافـذة الزجاجيـة ونظـر إلـى الصحـراء الممتـدة أمـام النافـذة، وهـو يفكـر فـي الاحتمـال الثانـي والأخيـر.

هل كان يحلم؟

ارتجـف وهـو يتخيـل تلـك الفكـرة. سـيكون هـذا أقـوى حلـم حـدث فـي حياتـه كلهـا.

لكـن شـيئا فـي عقلـه رفـض أن يكـون مـا حـدث لـه مجـرد حلـم أو حتـى كابـوس. مسـتحيل أن يكـون مـا رآه بالأمـس مجـرد وهـم. الحشـد الوثنـي، والمـارد الشـيطاني، والطفـل الـذي مزقـت سـارة جثتـه ثـم نهشـتها بنـات آوى، والعجـوز الـذي صـار سـليما كالجـرس فـي نفـس اللحظـة.

ثـم مـاذا عـن غرقـه فـي بحـر الرمـال والرمـال التـي اختنـق بهـا؟

إنــه مــازال يتذكــر كيــف اختنــق بالرمــال. لقــد كان الألــم وقتهـا حقيقيـا تمامـا.

هل يكون كل هذا مجرد حلم أو وهم اختلقه عقله؟

لـو كان هـذا صحيحـا فلابـد أن يعتـرف أنـه قد أصيـب بالجنون تمامـا هـذه المـرة ليختلـق عقلـه كل هـذا. ربمـا كانـت رؤيتـه

لأشباح رفاقه الذين قتلوا بداية جنونه، ولأنه لم يتلق العلاج المناسب فلابد أن حالته في تدهور.

كان بحاجة لدليل قوي. ولهذا فقد بدل ملابسه بسرعة وهبط نحو الطابق السفلي بخطوات سريعة متجاهلا الألم القادم من قدمه المصابة. لو كان موهوما فلابد أن العجوز المحتضر مازال بغرفة الملاحظة.

لكن غرفة الملاحظة كانت فارغة، دار فتحي فيها كالمجنون وهو يصرخ:

- أين أنت أيها العجوز اللعين، وأين ذهبت. أين أنت؟

ثم خرج من الغرفة في ثورة وصرخ:

- عايدة

خرجت عايدة من غرفتها ورمقته في هدوء صامت دون أن تجيب. ارتعشت شفته وهو ينظر إليها في شك قبل أن يسألها:

- أين ذهب العجوز؟

- لقد رحل.

- أعلم أنه رحل. ولكن لماذا رحل. هل مات مثلا؟

تنهدت في بطء قبل أن تجيبه:

- لقد شفى من مرضه يا دكتور ولهذا ذهب.

-شفي من مرضه؟ إنه رجل يحتضر والمحتضرون لا يستعيدون عافيتهم بتلك السرعة أو الطريقة.

- وما أدراني؟!

- إذا متى ذهب؟

- حين جئت هذا الصباح لم يكن هنا، ولهذا خمنت أنه قد غادر بالأمس ليلا بعد رحيلي. اعتقدت أنك كنت موجودا حين حدث هذا.

رأى الخوف في وجهها، وبفطنة علم أنها لا تكذب، لكن الارتعاش الخفيف في شفتيها أنبأه أنها لا تخبره بالحقيقة الكاملة. إنها تمنحه بعض الحقيقة وتخفي البعض الآخر.

تأمل عينيها الباهتتين وملامحها السمراء الجامدة وبشرتها المشدودة التي دبغتها شمس الصحراء القاسية، وهو يتساءل، أهي في صفه أم تراها تشترك مع أهل البلدة في تلك الجرائم اللعينة، وهل هي في المكان مجرد ممرضة وظيفتها أن تساعده لو احتاجها، أم أن دورها الحقيقي هنا هو مراقبته؟

-أريد مغادرة هذه البلدة الآن، هل يمكنك تدبير عربة تغادر البلدة.

قالها في هدوء وبطء، فأجابت على الفور:

-لا يوجد عربات في البلدة بأكملها يا دكتور، العربات

الوحيـدة التـي كانـت تأتـي إلـى هنـا كانـت تجـيء مـرة واحـدة فــي بدايــة الشــهر وهــي تحمــل المــؤن الضروريــة لديــر النعمـان والبريـد ومرتباتنـا. بعـد ذلـك تنقطـع صلتنـا بالعالم الخارجـي، ظننتـك تعلـم هـذا حيـن جئـت.

بعناد صاح:

-لكننــي لا أريـد البقـاء فـي هـذه البلـدة الملعونـة لحظـة واحـدة، أريـد أي شـيء يخرجنـي مـن هنـا، أرجـوك يـا عايـدة، سـاعديني.

-تقبل أسفي يا دكتور، ليس لدي ما أقدمه لك.

قالتهـا فــي جمــود وعــادت لحجرتهـا، فزفـر فــي حنــق، ثــم انسـحب عائـدا إلـى حجرتـه. راح يـدور فيهـا كالمجنـون وهـو لا يـدري مـا عليـه القيـام بـه، كان يشـعر بالعجـز، بالحصـار فـي قلـب مـكان ملعـون، لكـن أكثـر مـا يثيـر جنونـه هـو عـدم قدرتـه علـى التأكـد مـن حقيقـة مـا حـدث بالأمـس والأيـام التـي قبلهـا. لـو كان مـا مـر بـه قـد حـدث بالفعـل فالمفتـرض أنـه قـد غـرق فـي بحـر الرمـال، المفتـرض أنـه ميـت، وبقـاءه علـى قيـد الحيـاة حتـى هـذه اللحظـة يعنــي أنــه قــد تــم إنقـاذه، فهـل فعلتهـا سـارة؟

ولماذا تفعل شيء كهذا؟

ولماذا أعادته لفراشه وحجرته وكيف فعلتها؟

بــل وكيــف لا يجــد علــى ملابســه وجســده أي أثــر للرمــال والمطـر والوحـل الــذي لوثــه بالأمــس؟

أسئلة تكاد أن تفجر رأسه.

الأكثر رعبا أن يكون كل هذا وهم يختلقه عقله، هذا يعني أنه عقله قد تجاوز الخطوط الحمراء كلها، وأنه يعدو حثيثا نحو الجنون.

تمنى التحدث في تلك اللحظة إلى أي شخص. إلى أمه إلى حبيبته التي خانته، أو حتى إلى أشباح رفاقه. المهم أن يتكلم، وألا يكتم تساؤلاته في جوفه. استلقى على الفراش ونظر إلى الطاولة بجواره حيث وضع رواية بداية ونهاية لنجيب محفوظ، التقط الكتاب وفتحه ليجد نفسه أمام تلك الورقة أو الرسالة الغامضة التي تركها له طبيب الوحدة الصحية الذي كان هنا قبله.

اهرب.

راح يقرأ الكلمة عشرات المرات، وهو يتساءل عما واجهه ذلك الطبيب ودفعه لترك مثل تلك الرسالة بين كتبه، وكيف جاءه اليقين أن هناك من سوف يأتي بعده ويفتش في كتبه ويعثر على ذلك التحذير.

لكن ماذا لو لم يكن هذا هو التحذير الوحيد الذي تركه، ماذا لو كان هناك المزيد من الرسائل الغامضة بين متعلقات الطبيب الذي أصبح يشك الآن في أنه قد اختفى أو قتل.

واتته الحماسة فنهض على الفور، اتجه أولا إلى الكتب التي عثر عليها، وفي جنون راح يفتحها ويفتش بين

أوراقهـا قبـل أن يلقيهـا جانبـا فـي لامبـالاة واهمـال، وحيـن انتهـى كانـت الكتـب فـي مـكان حولـه، لكنـه لـم يعثـر فيهـا علـى أي شـيء ذا بـال. فقـط بعـض الصـور المقصوصـة مـن المجـلات الفنيـة للفنانـة فاتـن حمامـة. كمـا يبـدو كان الطبيـب مغرمـا بهـا وبصورهـا.

نظـر فتحـي حولـه وهـو يفكـر فـي الخطـوة التاليـة، ثـم اتجـه بصـره نحـو سـطح الخزانـة المعدنيـة. اتجـه إليهـا وراح يفتـش بباطـن يـده علـه يعثـر علـى شـيء لا تـراه عينـاه. كان هنـاك الكثيـر مـن الغبـار، لكـن فـي الزاويـة اليمنـي مـن سـطح الخزانـة كانـت هنـاك شـيء مـا. ظنـه فـي البدايـة أحـد الكتـب. لكنـه سـرعان مـا أكتشـف أنـه دفتـر ذو غـلاف مـن الـورق المقـوي ذي لـون أزرق. وبخـط منمـق فـي منتصفـه مكتـوب كلمـة واحـدة:

-مذكراتـي.

بقلـب يخفـق مـن الإثـارة تراجـع فتحـي بظهـره للخلـف حتـى بلـغ حافـة الفـراش وجلـس عليـه والمذكـرات مازالـت فـي يده يتأملهـا فـي إثـارة ممزوجـة بخـوف مبهـم. مسـح الغبـار عـن الغـلاف بباطـن كفـه، وأدار الدفتـر السـميك أمـام عينيـه، ثـم قـرر أن يفتحـه.

سـمع طرقـات مباغتـة علـى بـاب الغرفـة فأجفـل مـن المفاجـأة، لكنـه سـرعان مـا اسـتعاد رباطـة جأشـه وهـو ينهـض ويتجـه للبـاب وهـو يهتـف:

-أنا قادم.

لابـد أنهـا عايـدة، وربمـا كان هنـاك أحـد المرضـى. حيـن فتـح البـاب وجـد سـارة أمامـه، بفتنتهـا وسـحرها وابتسـامتها المشـرقة وعينيهـا الغامضتيـن. كانـت مفاجـأة حقيقـة لـه. رمقهـا فـي رهبـة وخـوف فـي صمـت. ظلـت ترمقـه بجفـون لا ترمـش لبرهـة قبـل أن تقـول:

- ألـن تدعونـي للدخـول، اعتقـدت أنه سـتتصرف كجنتلمان حقيقـي ولـن تتركنـي هكذا أمـام الباب.

كان يشـعر بالخـوف منهـا، والممتـزج بالكثيـر مـن النفـور، وكان قلبـه يخفـق رغمـا عنـه. كان عليـه أن يـرد عليهـا بـأي شـيء، ووجـد نفسـه يقـول:

- معـذرة أنسـة سـارة، لكنـي لا أعتقـد أن الغرفـة تليـق بدعوتـك لدخولهـا.

- يمكنني أن أنتظرك بالأسفل لنسير قليلا.

كان هـذا أخـر مـا قـد يفكـر فـي فعلـه فـي تلـك اللحظـة فأسـرع يجيـب:

- مـن فضلـك يـا سـارة. ليـس الآن، قدمـي المصابـة تؤلمنـي وأفضـل أن أحظـى ببعـض الراحـة الأن.

لـم تفـارق الابتسـامة وجههـا وكأنمـا رفضـه لدعوتهـا لا يعنـي الإهانـة لهـا وقالـت فـي استسـلام:

- كمـا تشـاء يـا دكتـور عبـد الوهـاب، لقـد أتيـت إلـى هنـا لأطمئـن عليـك بعـد أحـداث الأمـس. لقـد أنقذتـك مـن مـوت

محقق لو كنت تذكر، ورغم هذا لم أنتظر أن تشكرني.

هوى جوابها عليه كالصاعقة. إذن فلم يكن يهذي. إنها تعترف له بأن ما واجهه بالأمس كان حقيقة وليس وهم أو حلم. تدلى فكه السفلي في بلاهة. وارتعش جفناه، وراح يرمقها في خوف للحظات وهي تنظر إليه في هدوء وابتسامة خفيفة ساخرة مرتسمة على طرف شفتيها، وكأنما تستمتع ببث الرهبة في نفسه، في النهاية تحركت نحو السلم وهي تقول ببطء دون أن تنظر له:

-ربما لا زلت متعبا وبحاجة لبعض الراحة، ليس من السهل أن يمر المرء بتجربة الغرق في بحر الرمال، لكننا سنتحدث في وقت لاحق. فمازال هناك ما يجب أن تعرفه.

قالتها وقد بلغت بداية السلم ثم استدارت نحوه وأكملت:

-بالمناسبة تلك المذكرات التي عثرت عليها منذ دقائق، سوف تنفعك كثيرا، حاول أن تقرأها بتمعن وأن تعمل عقلك، فبعدها عليك أن تخوض اختيار مهم. إلى اللقاء يا دكتور عبد الوهاب.

في تلك اللحظة راح قلبه يخفق بقوة وسرعة مجنونة حتى اعتقد فتحي أنه قد يتوقف تماما في أي لحظة.

***

(15)

من مذكرات الدكتور أشرف سمير الدمرداش.

- لا أهوى كتابة المذكرات ولم أفكر في مثل هذا العمل يوما وكذلك لا أدري ما هي الطريقة الصحيحة لكتابتها، رغم انني أهوى القراءة وأقرأ من الكتب والمجلات والصحف ما يقع منها بين يدي في نهم عجيب. في الواقع لا أدري ما الأمر المهم الذي قد يستحق أن يسجله طبيب شاب يعمل في وحدة صحية لبلدة منسية من العسير أن تعثر عليها في أي خريطة.

ربما لو أنني اكتشفت مثلا مرضا جديدا هنا أو طريقة مبتكرة للعلاج لكان تدويني للمذكرات أمرا مفهوما. لكن كل هذا لم يحدث، فلماذا أجهد نفسي في كتابة مذكرات عن حياة رتيبة، لن تتعدي الاستيقاظ من النوم وتناول الطعام ثم النزول للعيادة لعلاج بعض المرضى الفقراء من أمراض محددة معروفة، ثم الصعود ثانية لغرفتي بعد الظهيرة للقراءة والحصول على بعض الراحة، بعدها أعود ثانية للعيادة مع غروب الشمس لنحو الساعة لعلاج المزيد من المرضى المسائيين قبل أن ينتهي اليوم في البلدة التي تهوى النوم مبكرا، والاستيقاظ قبل صلاة الفجر.

بالطبع لو كان الأمر هكذا لما فكرت لحظة في كتابة مثل تلك الأوراق التي لا أعلم إن كانت ستفقد أو تحترق

أو ستجد اليد التي تقرأها لتعلم أي أحداث غامضة مريبة تجري في هذه البلدة، دير النعمان.

أجل، لقد جرت في هذه البلدة أحداث يشيب لها الولدان. ومن سوء حظي أنني كنت هنا، ولهذا لم يكن من العجب أن أصاب ببعض شظاياها.

في البداية دعني يا صديقي الوهمي -الذي لن ألقاه يوما كما أوقن، ولن أعرف من يكون- أقص عليك قليلا عن بلدة دير النعمان.

البلدة هي مجرد واحة صغيرة في قلب الصحراء. أقرب الى محافظة مطروح من الإسكندرية، ورغم هذا فهي لا تتبع أيهما من الناحية الإدارية. اسمها غريب وخاصة وأنني ظننت من اسمها في البداية أني سأجد بها أحد الأديرة القديمة وبعض الرهبان المسيحين والكهنة، لكن العجيب أن أغلب أهلها من المسلمين ولا يوجد أي أديرة أو كنائس بها، فلماذا سموها إذا دير النعمان، لا أدري.

الناس هنا طيبون للغاية، يحيون حياة بدائية بسيطة لا تعرف شيئا من تكنولوجيا وتقدم العالم الخارجي، لا هاتف ولا راديو أو تليفزيون، ولا أجهزة منزل كهربائية أو مطاعم أو صحف أو غيرها.

إنهم يعيشون نفس الحياة التي عاشها أجدادهم واجداد اجداهم منذ عشرات ومئات السنين، بل وربما نفس الحياة التي عاشها أجدادهم منذ آلاف السنين.

يعمل بعضهم برعي الغنم والإبل والبقر وإن كانوا يكرهون أن تدعوهم بدوا، ويعمل البعض الآخر في زراعة النخيل والزيتون والتين، لكنهم لا يعدون هذا من أعمال الفلاحة ويرفضون أن يطلق عليهم فلاحين. بينما تقوم النساء هنا بصناعة الجبن وأعمال النسيج وخياطة الملابس. يقوم بعضهم بمبادلة سلعهم مع بعض أسواق المدن البعيدة بالقمح والدقيق وغيره من مستلزمات البلدة، في الماضي كانوا يقومون بهذا في قوافل صغيرة فوق الأبل، والآن وفي عصر السيارات يستأجرون شاحنات تأتي للبلدة من حين لآخر في مواعيد محددة.

بالمناسبة كانت وسيلة المواصلات الوحيدة المتاحة لي حين أتيت للبلدة أول مرة إحدى الشاحنات التي كانت قادمة لنقل شحنة من الزيتون.

كان من العجيب أن تهتم الدولة بإقامة وحدة صحية في مكان كهذا، لكن هذا ما حدث، ولهذا وجدت نفسي بعد التخرج ملزما بالعمل في تلك البلدة التي بالطبع لم أسمع عنها من قبل.

وكما ذكرت من قبل فالأهالي هنا طيبون للغاية ويرحبون كثيرا بالغرباء، ويقومون بضيافتهم في كرم حاتمي عجيب. كانوا في سرور كبير لمجيء طبيب شاب للبلدة، ولم يتعاملوا معي بتوجس أو رهبة. بل باحترام شديد وسرعان ما وفد الكثيرون للوحدة الصحية طلبا للنصيحة والعلاج وسرعان ما صرت موضع ترحاب في

البلدة كلها.

لم أكن الوحيد الذي أتي للعمل بالوحدة الصحية في دير النعمان، كانت هناك عايدة، ممرضة شابة مات والداها وتزوجت أختها الوحيدة من قريب لهما ذهب بها إلى أسوان حيث يعمل في بناء السد العالي، بينما وجدت عايدة نفسها مطالبة بالذهاب إلى بلدة في قلب الصحراء لتعمل بها. جاءت للمكان قبلي بنحو عامين، والعجيب أنها كما أري قد أحبت المكان بالفعل، والأكثر غرابة أنها قد تزوجت برجل من البلدة بعد ثلاثة شهور فقط من قدومها للبلدة.

الأيام هنا متشابهة بصورة تثير الجنون في البداية وخاصة لمن هو قادم مثلي من القاهرة وهي مدينة لا تعرف النوم أو الهدوء، لكن الغريب أن المرء سرعان ما يعتادها مع مضي الوقت ولا يعدها مثيرة للملل والتذمر كما يشعر في البداية.

مضت نحو أعوام أربع على هذا الحال الرتيب في البلدة، دون أي حدث جديد يعكر صفو مياهها الرتيبة ثم ظهرت سارة.

***

(16)

- كان ظهورها مريبا، مفاجئا، وغير مفهوم. ادعت في البداية أنها باحثة في العلوم الإنسانية أو الأنثروبولوجي كما يدعونها في الغرب، وأنها هنا لتقوم بأبحاث عن الواحات المصرية وعادات وتقاليد أهلها، وأنها اختارت دير النعمان لأنها تتمتع بالأصالة ولم تغيرها روح الحضارة والمدنية الحديثة بعد. راحت تدور في المكان كالنحلة، تدخل كل بيت، وتظهر في الطرقات وتتحدث إلى الجميع. تحضر حفلات الزواج وحفلات السبوع للأطفال ومناسبات العزاء.

ولأن أهل البلدة يمتازون بالبراءة والطيبة فلم يرتاب فيها أحد. من بعيد رحت أراقبها وأتتبع أخبارها ببعض العجب والكثير من الشكوك. إنها أمريكية في أرض مصرية في وقت صارت فيها أمريكا الشيطان الأعظم في أدبيات السياسة المصرية وقد راح عبد الناصر يهاجمها بلا هوادة في كل خطبة يلقيها وكل مؤتمر خارج مصر يحضره.

والعجيب أنها جاءت إلى البلدة برفقة كلبين ضخمين كالغيلان، كلبين قبيحين من المستحيل أن يحبهما شخص عاقل، لكنها كان تتحرك برفقتهما طوال الوقت.

في البداية اعتقدت أنها قد تكون هنا للقيام بأعمال الجاسوسية، لكن سرعان ما طرحت هذا التفكير عن عقلي، من يرغب في التجسس سيفعل هذا بالقرب

من المواقع العسكرية أو حتى المناطق المأهولة ليدرس المجتمع عن كثب، ولن يأتي لبلدة منسية لا قيمة لها من الناحية العسكرية أو الاستخباراتية أو الأمنية بأي شكل كان.

هي إذا قد تكون صادقة في زعمها بأنها تقوم بدراسة المكان وسلوك أهله.

حتى ذلك الوقت لم أدري الحقيقة.

ثم جاءت اللحظة المتوقعة، وجدتها ذات صباح بانتظاري في غرفة فحص المرضى، كانت بصحبة طفل مصاب بالتهاب في الحلق وقد جاءت مع أمه لتطالبني بالاعتناء به. وبعدها تعارفنا جيدا وصرنا أغلب الوقت سويا.

أخبرتني أنني المثقف الوحيد في المكان الذي يمكنها الحديث معه في شؤون علمية أو ثقافية، الرجل الذي لا زال يذكرها بالعالم الخارجي الحديث المختلف تماما عن عالم الواحة. كما أن اتقاني للإنجليزية كان يريحها كثيرا وخاصة أنها كما تتدعي لم تتقن العربية بعد بصورة كافية لتقيم حوارا كاملا مع أهالي البلدة.

ورغم كل تساؤلاتي وشكوكي فإنني سرعان ما سقطت في شباكها، كانت جميلة للغاية، فاتنة أمريكية شقراء بنكهة الحلم الأمريكي، وسرعان ما وجدت نفسي أفكر كيف ستكون الحياة معها في بلاد الأحلام حين تنتهي من مهمتها هنا ونسافر سويا لعالمها الجديد، بلاد العم سام، رحت أفكر في الراتب الضخم بالدولار الأخضر

والسـيارات الفارهـة والحيـاة فـي بيـت ريفـي ذي حديقـة ضخمـة، رحـت أتخيـل ابننـا الأكبـر الـذي سأسـميه باسـم أبـي الراحـل، أمـا الطفلـة الصغـرى فقـد تطلـق هـي عليهـا اسـم بريجيـت علـى اسـم أمهـا كمـا أعتقـد.

كنـت وقتهـا أحيـا فـي وهـم كبيـر، أو لنقـل أنـي كنـت مجـرد شـاب أحمـق، طبيـب غـر صغيـر سـقط فـي حبائـل الجمـال الغربـي، ولهـذا ومـع ثـورة الخيـالات الحمقـاء لـم ألحـظ تلـك التحذيـرات البسـيطة مـن حولـي والتـي كانـت تومـض بإلحاح منـذ البدايـة كأجـراس الإنـذار.

فـي البدايـة لـم ألحـظ كيـف راح أهالـي البلـدة يختفـون فـي النهـار وينشـطون فـي الليـل، لـو كنـت ذكيـا لأدركـت منـذ اللحظـة الأولـى أن هنـاك خطـب مـا، وخاصـة أنـي أعلـم أنهـم يتسـمون بالنشـاط ويسـتيقظون دومـا مـع بـزوغ الفجـر وينامـون مباشـرة مـع صـلاة العشـاء. نفـس السـمة التـي تميـز المجتمعـات النائيـة والريفيـة، لكـن أن يتبـدل الأمـر فهـذا مريـب بالطبـع.

الملاحظـة الثانيـة كانـت توقـف مـؤذن البلـدة عـن المنـاداة للصـلاة. ورغـم أن مسـجد البلـدة البسـيط كان فـي الناحيـة الأخـرى مـن المـكان، ورغـم أنـي فـي الواقـع لسـت ملتزمـا بـأداء الفـروض الدينيـة فـي موعدهـا، إلا أننـي لاحظـت الأمـر بغيـر اهتمـام كبيـر وقتهـا، وحيـن سـألت عايـدة عـن سـر هـذا، أجابتنـي فـي اقتضـاب أن المـؤذن الضريـر والـذي يسـاعده ابنـه المصـاب ببعـض العتـه فـي بلـوغ سـقف المسـجد لينـادي للصـلاة أصابـه المـرض.

العجيب أنني لم أتوقف طويلا عند إجابتها الغير كافية، فلو كان مريضا فلماذا لم يستعن بي أحدهم لعلاجه وخاصة أنه أحد مرضاي المعروفين، والأمر الآخر لماذا لا يقوم بدوره أحد رجال القرية الآخرين، فحتما لن تتعطل الصلاة لمرض المؤذن!

وكالعادة كنت أحمقا حين لم أعمل عقلي وقتها!

الملاحظة الثالثة هو توقف المرضى فجأة عن ارتياد الوحدة الصحية، لم يعد هناك أطفال مصابون بالنزلات المعوية والبرد والسعال. ولم تعد هناك نساء مصابات بالأنيميا وفقر الدم، ولم يعد هناك كهول وشيوخ مصابون بارتفاع ضغط الدم أو أمراض البروستاتا وغيرها.

كل هذا اختفى مرة واحدة. العجيب مرة أخرى أنني سررت بهذا قليلا في البداية، وأنا أعتقد أن هذا سيتيح لي المزيد من الوقت للقراءة.

أما الأمر المريب الرابع، فهو أنني قد صرت أغرق في النوم فور غروب الشمس في كل يوم ولا استيقظ قبل منتصف نهار اليوم التالي.

هل كنت أحمقا لأتغافل عن كل تلك الملاحظات المريبة المتزامنة، أم أن غشاوة كثيفة على عقلي منعته من التفكير والشك؟

لكن الشيء الذي لم يتبدل كان سارة. اعتادت أن تأتي

إلـيّ فـور انتصـاف الشـمس فـي كبـد السـماء. تمنحنـي ابتسـامتها المشـرقة وتغيبنـي عيناهـا فـي عوالـم سـاحرة مـن الأحـلام العذبـة. تتحـدث بـلا انقطـاع عـن سـحر الشـرق وجمـال الصحـراء ودفء البلـدة وعراقـة أهلهـا وعذوبـة الحيـاة البدائيـة فـي البلـدة، وأنـا غائـب عـن كل هـذا فـي التعبـد فـي محرابهـا والغـوص أكثـر وأكثـر فـي بحـور هواهـا وعشـقها.

اعتدنـا السـير فـي الصحـراء والعجيـب أنهـا دومـا كانـت تذهـب بـي إلـى مقابـر البلـدة، وحيـن سـألتها ذات مـرة عـن سـر ولعهـا بالمـكان منحتنـي إجابـة فلسـفية :

-لأن الموت هو بوابة الخلود الحقيقية.

ولأننـي أحمـق فلـم أنتبـه لسـلوكها المريـب وخاصـة فـي المقابـر.

لمـاذا تتجمـع حولهـا الـكلاب وبنـات آوى، ولمـاذا يتمسـحون بقدميهـا ولا يهاجموهـا ويستسـلمون لأناملهـا الرقيقـة فـي دعـة وكأنهـم حيواناتهـا الأليفـة؟

مـا الـذي كانـت تفعلـه خلـف شـواهد القبـور حيـن كانـت تلـح علـيّ فـي الوقـوف بعيـدا وعـدم اللحـاق بهـا معللـة ذلـك بأنهـا بحاجـة لبعـض الخصوصيـة لتمـارس رياضـة التأمـل فـي هـذا المـكان المثيـر؟

ثـم دعتنـي بعدهـا ذات يـوم لصعـود التـلال المواجهـة للمقابـر، وهنـاك شـاهدت لدهشـتي بعـض التماثيـل الفرعونيـة القديمـة وأعمـدة وجـدران حجريـة عليهـا نقـوش

قديمة أغرقت الرمال بعضها ونجا البعض الأخر منها وظل قائما.

أخبرتني أن المكان كان معبدا قديما تمارس فيه طقوسا سرية قديمة لعبادة إله قوي قديم. ولأن المعبد متوار تماما بين التلال المحاطة بالرمال المتحركة ولأنه لم يذكر في أي مخطوطة قديمة فلم يكن هناك من يبحث عنه أو يعرفه. أخبرتني أن رجال البلدة لا يحبونه، ويخشونه ويصرون أنه في الماضي كان مأوى للشياطين ولهذا كان محرما على أبناء بلدة دير النعمان الذهاب لهذا المعبد، لكنها ومنذ اكتشفته راحت تتردد عليه خلسة لتدرس النقوش المدونة على جدرانه وتسجلها في أوراقها. ادعت أنها درست الهيروغليفية في أحد الصفوف الدراسية في أمريكا، مثلما ادعت أنها جاءت بي للمكان لأنها تثق بي ولأنها بحاجة لمن يشاركها بهجة هذا الاكتشاف المثير.

قادتني إلى هناك بضع مرات وهي تتحدث في حماس عن الديانات القديمة والقوى الغامضة القادمة من أزمنة سحيقة تسبق التاريخ المكتوب. تحدثت عن كائنات نسيها البشر بالغة القوة والبطش خافها البشر ولم ينجحوا في تجنب شرورها إلا بعبادتها. ثم راحت تصب اللعنات على كهنة رع وأمون الذين حاربوا أتباع هذه الديانات حتى اضطروهم للرحيل الى الوديان المهجورة والصحاري البعيدة ليقيموا طقوسهم السرية بعيدا عن العيون المتربصة.

كانت تشير الي بعض النقوش الباهتة وهي تؤكد لي أن أتباع هذه الكائنات لا زالوا موجودين حتى الآن وأنهم تعلموا على مر القرون الحفاظ على أسرارهم في انتظار اللحظة المناسبة التي ينهض فيها سادتهم وآلهتهم القديمة ليعود البشر جميعا لإتباعهم ثانية وعبادتهم.

هراء مسل، هكذا كنت أسمعها في صمت وأنا غارق في تأمل عينيها الزرقاوين وأنا أرى أنها كالكثير من الغربيين تؤمن بالقوي الغامضة وتصدق في الخرافات القديمة، بل وربما كانت واحدة من هؤلاء الأتباع المهووسين بالديانات القديمة.

كنت قد قرأت في مجلة المصور تحقيقا عن الجماعات الغربية التي تحاول إحياء عبادة الآلهة المصرية القديمة. هناك مثلا جماعة «أدجار كيسي» والذي سمى نفسه بالنبي الأمريكي، والتي يبلغ عدد أتباعها الآن نحو ثلاثة مليون شخص حول العالم. هؤلاء يومنون أن أسرار الكون ومن بينها علوم أطلانتس محفوظة في صندوق مخفي أسفل أبو الهول. ولهذا يتعبدون في كل عام بين يدي أبو الهول أو في حجرة خوفو السرية. هناك كذلك الجماعة الضخمة الملقبة بالصليب الوردي والتي تأسست في القرن السادس عشر في المانيا، ويؤمن اتباعها بالفلسفة القديمة ويحجون للهرم الأكبر في كل عام حيث يحاولون ممارسة طقوسهم الغامضة في غرفة خوفو من أجل البحث عن الأسرار القديمة.

ربما كانت سارة واحدة من أتباع تلك العقائد المختلة،

لكن ما الضرر في هذا؟

المهم أن تكون معي وتحبني، فلتتبع الشيطان نفسه طالما أن هذا لن يفرقنا.

كنت طفلا ساذجا بأذنين كبيرتين وذيل أسفل ظهري طويل!

كنت حمارا حينها ولهذا لم أشك فيها.

❊❊❊

(17)

- احتاج الأمر لنحو ثمانية عشر يوما حتى يأتي المريض الأول منذ توقف أهل البلدة على ارتياد الوحدة الصحية.

كان الوقت قرب منتصف الليل، في تلك الليلة لم يأت عبد النبي بالطعام كما اعتاد أن يفعل منذ أتيت للعمل للبلدة. في الصباح كانت تأتي عايدة للعمل كل يوم ومعها إفطاري، وبعد صلاة العصر يأتي عبد النبي بطعام يكفي لوجبتي الغداء والعشاء. حاولت منذ اليوم الأول إعطائهما بعض النقود ثمنا لهذا الطعام لكنهما رفضا في حسم وأخبروني أن أهالي البلدة متكفلون بطعامي طوال الوقت إكراما لي.

كنت أشعر بالجوع وقتها، وكان عجيبا ألا أكون نائما بعمق في ذلك الوقت كما صار يحدث منذ بضعة أسابيع. وعلى ضوء مصباح زيتي حاولت التشاغل بالقراءة، مضى الوقت ببطء قبل أن أسمع الطرقات القوية على الباب، كان عجيبا أن يلجأ أهالي القرية للوحدة في مثل هذا الوقت، فمهما كان الوضع ملحا لم يفكر أحدهم في القدوم للوحدة طلبا لمشورة طبية في منتصف الليل.

بدلت من ملابسي وهبطت. كان هناك أربعة أشخاص. ثلاثة رجال وصبي صغير. لم أعرف الصغير لكن الرجال كنت اعرفهم جيدا. وكان وجودهم أمامي في تلك

اللحظة أمر عجيب. فالثلاثة قد بلغوا من العمر عتيا وقد تجاوزوا جميعا التسعين من العمر. الثلاثة في الواقع طالما قمت بعلاجهم من قبل من أمراض مزمنة لا علاج لها، جعلتهم مقعدين حتى صار من العسير أن يقدر أحدهم على الذهاب لقضاء حاجته دون مساعدة.

الآن أراهم بمفردهم أمامي في منتصف الليل، اثنان منهم في كامل صحتهم يتعاونان في حمل الثالث، بينما يتقدمهم الصبي وجسده مشدود في ثبات غريب وكأنه تمثال آدمي. وضعوا الثالث على الفراش ثم راحوا يرمقونني في نظرات غريبة غير آدمية. كنت أشعر أن هناك ما يخيف في وجوههم الجامدة، لكني فشلت في معرفته. انتظرت أن يتحدثوا ويخبروني سبب زيارتهم فلم يتكلموا، وحين بدأت الحديث كان الصبي هو الذي تحدث قائلا:

-أبقه حيا. إنهما يومان فقط ما يحتاجه، وسوف نأتي لنأخذه في اليوم الثالث. لكن لا تدعه يمت قبلها.

ثم انصرفوا بعدها مخلفين وراهم رائحة كبريتية عنيفة ممتزجة برائحة عضوية متعفنة أتذكرها جيدا خاصة أنني طالما شممتها في مشرحة المستشفى وكلية الطب. ورغم ذهولي مما يحدث فقد قمت بواجبي في الاعتناء بالرجل رغم غرابة المهمة، كان المريض ويدعي الحاج عاطف يحتضر بلا شك. وقد كان هو مصدر الرائحة العضوية. إن أعضاؤه الداخلية تتحلل بلا شك. لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله له، فلم أعطه غير بعض

المحاليـل ثـم عـدت لغرفتـي وتركتـه للصبـاح.

لـم أر الدهشـة علـى وجـه عايـدة فـي الصبـاح، ثـم جـاءت سـارة وخرجنـا سـويا لبعـض الوقـت حيـث ذهبنـا للمقابـر مكانهـا المفضـل وعدنـا بعدهـا. لـم يـأت عبـد النبـي بطعـام الغـداء والعشـاء كاليـوم السـابق، وكان مـن حسـن حظـي أنـي احتفظـت بمـا تبقـى مـن طعـام الإفطـار والا قضيـت تلـك الليلـة جائعـا كاليـوم السـابق.

قـرب منتصـف الليـل سـمعت جلبـة بالأسـفل، هبطـت لأنظـر مـا الـذي يحـدث فوجـدت بـاب الوحـدة الصحيـة الخارجـي مفتوحـا رغـم تأكـدي مـن أننـي أحكمـت اغلاقـه. وفـي غرفـة الملاحظـة كان هنـاك العجـوزان والصبـي يلتفـون حـول الحـاج عاطـف وبجـواره وقفـت امـرأة شـابة تتلـو فـوق رأسـه صلـوات غامضـة بلغـة لـم أتبينهـا.

كانـت سـارة. وحيـن انتبهـوا لوجـودي اندفعـت نحـوي سـارة بابتسـامة مريبـة وأخبرتنـي أنهـا تعـرف الحـاج عاطـف وأنهـا هنـا مـن أجـل الصـلاة لـه. كنـت أشـعر بالدهشـة، لقـد كانـت هنـا بعـد الظهيـرة، ولـم تفكـر فـي زيارتـه والآن تأتـي فـي منتصـف الليـل كـي تصلـى مـن أجلـه وتتمنـى لـه الشـفاء؟!

رحلـوا بعدهـا. فأحكمـت إغـلاق البـاب وصعـدت لحجرتـي فـي توتـر. لـم تكـن هنـاك رغبـة لـدي فـي النـوم فعـدت لاسـتكمال قـراءة كتـاب لـم أنتـه منـه. وبعـد نحـو السـاعة ارتفعـت فـي الظـلام مـن حـول الوحـدة أصـوات ترانيـم غامضـة قويـة، فأسـرعت نحـو النافـذة لأرى أغلـب أهالـي

القرية وقد التفوا حول المكان وراحوا ينشدون ترانيم غامضة لم أفهم حرف منها وإن شعرت بالخوف من وقعها. المخيف أني رأيت من مكاني الحاج عاطف وهو يقف خارج مبنى الوحدة الصحية ويردد معهم الترانيم الغامضة رغم أن مفتاح الباب الخارجي في جيبي وقد أحكمت بنفسي اغلاق الباب.

كان الأمر مخيفا وبدت الترانيم كصلاة وثنية من تلك التي نقرأها في القصص الأجنبية. هاتف غامض بداخلي دفعني للتراجع للخلف فعدت لفراشي وأنا أرتجف خوفا، حتى انتهت تلك الطقوس الغامضة وعاد السكون للمكان كله، فغبت في النوم، في نهار اليوم التالي لم يحدث أي جديد، فقط عاد عبد النبي بعد العصر للمكان ومعه طعام الغداء والعشاء. وكما كان يحدث من قبل وقرب صلاة العشاء عاودتني الرغبة قوية في النوم فنمت مبكرا. في الصباح اهتممت بتزويد الحاج عاطف بالمحاليل كما اعتدت أن افعل وانا اتعجب انه لم يمت رغم ضعفه الشديد كما جاءت ساره بعد العصر وصلت كما تزعم من أجل المريض ثم انصرفت دون أن تدعوني للخروج زاعمة أن لديها عمل ما، وكما حدث بالأمس تناولت طعام العشاء ثم غرقت مباشرة في النوم.

في اليوم التالي لم أجد الحاج عاطف في الوحدة الصحية، أخبرتني عايدة أنه قد رحل مع أهله بالأمس. لم أعر الامر اهتماما حقيقيا حينها وتناسيت ذكرى تلك الليلة الغريبة واحداثها العجيبة.

مضـى أسـبوع ثـم تكـرر مـا حـدث قبـل أسـبوع، لـم يـأت عبـد النبـي بطعـام الغـداء والعشـاء ولـم اخلـد يومهـا للنـوم مبكـرا، وقـرب منتصـف الليـل سـمعت الطرقـات علـى بـاب الوحـدة وهنـاك وجـدت صبـي أخـر وثـلاث رجـال فـي أرزل العمـر. هـذه المـرة كان الحـاج عاطـف أحدهـم وكان قويـا سـليما كالجـرس. بالطبـع مـا أراه لهـو معجـزة لا تصـدق. الرجـل كان يحتضـر منـذ أسـبوع واحـد، وعضـلات جسـده كلهـا كانـت فـي ضمـور شـديد فكيـف اسـتعاد عافيتـه وصحتـه بتلـك السـرعة!

الأمـر يحتـاج لمعجـزة أو سـحر. حاولـت الحديـث معـه فلـم يـرد علـيّ واكتفـى بالنظـر لـي. وتكلـم الصبـي الجديـد وهـو يطالبنـي بالعنايـة بالعجـوز المحتضـر الجديـد لثلاثـة أيـام ثـم انصرفـوا. كانـت بـذور الشـك تـورق فـي نفسـي وتزدهـر.

أولا هنـاك أمـر رهيـب يحـدث بالقريـة لـه علاقـة بهـؤلاء الشـيوخ المحتضريـن.

ثانيا سارة متورطة في الأمر بصورة ما.

ثالثـا هـل يـدس عبـد النبـي لـي مخـدر أو منـوم مـا فـي الطعـام لأنـام كل ليلـة بعـد العشـاء؟ ولمـاذا يفعـل؟

عنـد تلـك النقطـة قـررت الانتبـاه لـكل مـا يحـدث مـن حولـي، وأن ألتـزم الحـذر، وأن أحتفـظ بشـكوكي كلهـا داخلـي حتـى أتأكـد. فـي الليلـة الثانيـة وجـدت سـارة فـي منتصـف الليـل فـي حجـرة العجـوز مـع الباقيـن وهـي تـردد نفـس

الصلاة الغامضة من أجله وقرب منتصف الليل التف أهالي القرية كلهم حول المكان وراحوا يرددون الصلاة الغامضة، اليوم الثالث لم أتناول من الطعام الذي جاء به عبد النبي وتأكيدا لشكوكي فلم أشعر برغبة في النوم المبكر، وقرب منتصف الليل تكرر حشد الليلة السابقة والترانيم الوثنية الغامضة. عند تلك النقطة كنت قد تأكدت من أن عبد النبي يدس لي بالفعل المخدر في الطعام. وفي الليلة الثالثة عاد الحشد لكنه هذه المرة جاء ليصطحب العجوز المحتضر الجديد معه. ولأني أتميز بالفضول قررت أن أتبع أهالي البلدة من بعيد. كانوا يتجهون للمقابر. ومن بعيد رأيت ما كاد أن يقلتني من الفزع.

هؤلاء القوم لا يقومون فقط بطقوس وثنية كما اعتقدت.

انهم يقيمون الطقوس لاستدعاء شيطان قديم

ويقدمون الصبية قرابين له!

و....

***

ومن باب الغرفة تناهت إلى أذنيه في تلك اللحظة طرقات خافتة مترددة.

وضع كراسة المذكرات بجانبه وتساءل. هل عادت سارة ثانية؟

لكنها كانت عايدة. تعجب من أنها لا زالت في العمل رغم أن النهار قد ذهب لكنه اكتفى بالنظر إليها في صمت منتظرا أن تتحدث.

وبعينين داميتين مليئتين بالدموع نظرت إليه في تردد قبل أن تقول

- معذرة يا دكتور، لكني في مشكلة كبيرة ولا أعلم ماذا أفعل!

***

(18)

كانت عايدة في تلك اللحظة في ذروة انهيارها وضعفها. دعاها فتحي للدخول للحجرة فلم تتردد. جلست على مقعد خشبي ودفنت وجهها بين كفيها وراحت تنتحب في قوة. ذهب في هذا الوقت كل الجمود والغلظة اللذان طالما اتسمت بهما في السابق. دارت في رأس فتحي عشرات الاحتمالات، هل تعاني من مشكلة مع زوجها، أم مشكلة صحية تعانيها، أم تراها مشكلة تتعلق بتلك اللعنة التي حاقت بالبلدة. ام أنها تعاني من مشكلة نفسية؟

احتمالات كثيرة، وليس أمامه غير أن ينتظر حتى تهدأ ليفهم منها الحكاية كلها. لاحظ أن أشباحه قد ظهرت ثانية، وقد التفوا حول عايدة وراحوا يرمقونها في ثبات. تجاهلهم فتحي تماما، وحين هدأت عايدة قليلا قدم لها كوبا من الماء تناولته من يده وارتشفت جرعة صغيرة ثم قالت:

- إنه ابني يا دكتور. ابني لبيب. سوف يأخذونه. سوف أفقده للأبد.

قال فتحي في تعجب:

-مهلا يا عايدة. لست افهم. من هؤلاء الذين ينوون أخذ طفلك ولماذا يفعلون. أريد أن أفهم!

صرخت في حقد:

- الملاعين يا دكتور. الملاعين أهل البلدة.

بدأت لمبة إنذار حمراء تومض في رأسه، فقال في حذر:

- وهل لسارة علاقة بالأمر؟

رمقته عايدة في أمل بينما راح أشباحه يصفقون وكأنما هتف بالإجابة الصحيحة، وهتفت عايدة في غل كبير:

- إنها تلك اللعينة، كل هذا الخراب حل بالبلدة مع قدومها المشؤوم. إنها شيطانة حقيقية.

راحت كل اشباح رفاقه تشير نحوها في انتصار وكأنما تؤكد كلامها وقال فتحي في بطء وهو يتذكر جثة الصبي المذبوحة وسط المقابر والتي راحت بنات آوى تنهشها، حتى اختفت تماما في أحشاءها:

-هل سيختطفون ابنك؟

- أنت لست تفهم يا دكتور. إنهم يسيطرون على الصبية بصورة شيطانية. حتى يصير الصبي تابعا لهم يقوم بملء ارادته بما يطلبوه منه.

- حتى الآن لم تخبريني من هم؟

- أهالي البلدة كلهم. لقد تغيروا وصاروا يتبعون سارة وشيطانها الرجيم الذي تتبعه، أنت لا تعلم حقيقتها إنها كافرة لعينة.

كانـت الحقيقـة الآن تسـطع كالشـمس، لكـن عقـل فتحـي المجهـد كان بحاجـة لفهمـا ببـطء فغمغـم وهـو ينهـض مـن مكانـه ويقتـرب منهـا:

- ومـاذا عـن زوجـك؟ لمـاذا لا يحمـي ابنـك. لمـاذا لا ترحلون عـن المـكان فـورا لـو كان الحفـاظ علـى سـلامة طفلكـم غيـر ممكنـة .

رمقتـه بعيـون لا تـرى تقريبـا مـن البـكاء قبـل أن تقـول منتحبـة:

- زوجـي؟ لقـد صـار زوجـي واحـدا منهـم، إنـه فـي هـذه اللحظـة مصـدر الخطـر الأكبـر علـى لبيـب، طفلـي يـا دكتـور.

-وماذا سيفعلون به؟

ورغـم أنـه يعلـم الإجابـة جيـدا ومازالـت صـورة جسـد الصبي المذبـوح فـي المراسـم الشـيطانية ماثلـة أمـام عينيـه إلا أنـه سـأل السـؤال فـي حـذر، فجاوبتـه بـأن عـاودت النحيـب بقـوة أكبـر حتـى راح جسـدها يرتـج بشـدة وهـي تقـول:

- ألا تعلـم حقـا يـا دكتـور. ألـم تخبـرك سـارة؟ إنهـم يقتلونهـم يـا دكتـور. إنهـم يقدمونهـم كقرابيـن لشـيطانهم اللعيـن.

مضـت نحـو السـاعة بعـد رحيـل عايـدة وفتحـي جالـس فـوق فراشـه يفكـر فيمـا قالتـه لـه عايـدة ومـا قـرأه فـي مذكـرات أشـرف سـمير الدمـرداش الـذي كان هنـا قبلـه. العجيـب أن مذكـرات الدكتـور أشـرف اختفـت تمامـا مـن الحجـرة راح

يبحث عنها بجنون ليكملها إلا أنه لم يعثر عليها، شك في أن عايدة قد تكون قد سرقتها لكنه تذكر أنها ظلت طوال الوقت بعيدة عن الفراش في الناحية الأخرى من الغرفة ولم تغب عن عينيه لحظة واحدة، فأين اختفت المذكرات إذا؟

شعر أنه يتورط في شيء خطير أكبر منه، وأنه ليس بمقدوره الوقوف أمامه مفرده أو منعه. بالطبع لن يواجه كل هذا الخطر بقدم عرجاء وجسد هزيل ونفس كسرتها هزيمة مذلة في الحرب.

في تلك اللحظة عادت أشباح رفاقه لتظهر في المكان، وهتف فيه الرائد محمد شريف قائده في الوحدة العسكرية:

- ماذا تنتظر أيها الغبي؟ الأمر واضح. اهرب.

هتف فتحي في عصبية وهو يسد أذنيه بكفه ويغمض عينيه وكأنما يرغب في ألا يرى أو يسمع شيئا:

-كفي حديثا. اصمت عليك اللعنة أنت الآخر.

اقترب منه سعيد المسيري بنفس جسده الأسمر النحيل، ومال نحو أذنه وهمس:

-أنت لا تعلم الحقيقة كلها يا صديقي. الأمر أخطر مما تعتقد.

فتح فتحي عينيه وصرخ:

- وما الحقيقة التي لا أعلمها؟ هيا أخبروني بها.

لم يجاوبه أحد. ولاحظ للمرة الأولى كيف راحت أطيافهم تهتز وترتعش، قبل أن يختفوا تماما مخلفين ورائهم خيط رفيع كالدخان سرعان ما زال هو الآخر. نهض فتحي من مكانه واتجه نحو النافذة التي حل الظلام خلفها. رمق الأفق المظلم والذي كان للمرة الأولى منذ جاء لهذا المكان غير مغطى بالغيوم والسحب ولا ينذر بالمطر. كان القمر نصف بدر في تلك الليلة، ولهذا راحت ظلال المنازل والأشجار والصحراء ترتسم من بعيد في ظلال رمادية أمام عينيه. غمغم فتحي في سره:

-ما الذي تخفيه تلك البلدة أسفل هذا السكون الزائف.

ومن بعيد رأي ظلال بشرية تتحرك صوب مبنى الوحدة الصحية. دق قلبه في تحفز وهو يراقبهم. كانت ظلالهم واضحة رغم مكانهم الذي ما زال بعيدا عنه. رجلين بالغين وحمار يحمل جسد ضامر، وصبي يرافقهم. هل يكون الصبي ابن عايدة؟

هذه المرة لم ينتظر أن يصلوا لمبنى الوحدة الصحية، بل حزم أمره وحمل المصباح الزيتي في يده وهبط ليكون أمام الباب في استقبالهم. لم يتأخروا كثيرا، وحين وصلوا للمكان رأى الصبي. لم يكن يتعدى الخامسة من عمره بلا شك. ورغم الظلام إلا أنه كان من السهل تعرفه من خلال ملامحه وخاصة أنه يشبه أمه كثيرا. كان يحمل نفس العين السوداء والجفون الكثيفة واستدارة الوجه.

إنـه لبيب بـلا شـك. وحيـن نظـر نحـو الرجـال الثلاثة الشـيوخ عـرف مـن يكـون الشـخص الـذي يحملـوه. إنـه نفـس العجـوز المحتضـر الـذي رآه فـي بيتـه قبـل بضعـة أيـام.

هنا قال فتحي في خشونة:

-ماذا تريدون؟

هتف الصبي في جمود:

- اعتني بالشيخ صالح أيها الطبيب.

وضـع فتحـي يديـه علـى إطـار البـاب ليمنعهـم مـن الدخـول وقـال فـي إصـرار:

- ومـاذا لـو أخبرتكـم أن هـذا غيـر ممكـن. عـودوا لبيوتكـم مـع مريضكـم هـذا. المـكان غيـر معـد لاسـتقبال مثـل تلـك الحـالات.

لـم يبـد علـى وجـوه الرجـال الثلاثـة أي أثـر لكلامـه، بينمـا قـال الصبـي فـي بـرود:

- أبقـه حيـا. إنهمـا يومـان فقـط مـا يحتاجـه، وسـوف نأتـي لنأخـذه فـي اليـوم الثالـث. لكـن لا تدعـه يمـوت قبلهـا.

لـم يتحـرك فتحـي مـن مكانـه. كان مصـرا علـى عـدم اسـتقبال المريـض، وليحـدث مـا يحـدث. مضـت نحـو دقائـق خمـس مـن الصمـت والترقـب. قبـل أن يلحـظ فتحـي مـا يـدور فـي الظـلام خلـف الرجـال الثـلاث والصبـي. رأي فتحي الشـبح الغامـض الـذي يتقـدم نحـوه بخطـوات غيـر ثابتـة. وبعـد

لحظة دب في قلبه الرعب. كان القادم هذه المرة من قلب الظلام ذلك القرد المخيف ذو العيون الصفراء المشقوقة طوليا. فح القرد في وجه فتحي فتراجع بظهره للخلف. تقدم الرجلان بزميلهم الذي يحملانه والصبي حتى بلغوا حجرة الملاحظة فدخلوها واختفوا فيها للحظات ثم عادوا وقد تركوا الشيخ صالح داخلها. كان فتحي عند السلم في تلك اللحظة وهو يراقبهم في خوف حقيقي وعيناه معلقتين بالقرد الذي توقف عند باب الحجرة وراح يرمقه بنظرات منذرة ثم راح يتراجع للخلف ليتوارى في الظلام حين خرج لبيب والعجوزان من الغرفة.

والتفت لبيب الى فتحي وقال:

- اعتن به أيها الطبيب. ولا تدعه يموت.

ودون كلمة زائدة استداروا، ورحلوا عن المكان.

***

(19)

من الوهلة الأولى أدرك فتحي أن عايدة لم تحظ بلحظة نوم واحدة بالأمس. وربما لم تكف كذلك عن البكاء، عيناها كانتا محتقنتين وجفناها منتفخين في صورة أهلة سوداء ضخمة، وارتجافة خفيفة تغمر جسدها كله. كانت تعتني بالشيخ صالح في حجرة الملاحظة حين رآها، وقال فتحي في حذر:

-لقد أتي به لبيب بالأمس.

لم تجبه، وإن ارتجفت يدها بصورة أكبر، فاقترب منها فتحي وأردف:

- هل عاد للمنزل بعدها.

هزت رأسها ببطء بالنفي، توقع فتحي ألا تجيبه أكثر من هذا لكنها قالت:

- لن يعود للبيت مرة أخرى، لقد ذهب ابني للأبد يا دكتور، ولن يعود.

- لست أفهم. أخبريني يا عايدة، أين هو طفلك الأن؟

التفتت إليه هذه المرة ودموعها تنهمر بهدوء من عينيها قبل ان تقول:

-الصبي المختار لا يعود ملكا لأهله ولا يعود بعدها لبيته مرة ثانية، إنهم يذهبون به للبئر القديم مع

الشاهدين الكبيرين. سيظل هناك حتى تنتهي الطقوس.

ثم غادرت المكان في عجلة وكأنما تؤثر أن تكون بمفردها، رمق فتحي الشيخ المحتضر وكتم أنفاسه وهو يدنو من جسده الساكن كي لا تتسلل تلك الرائحة العضوية الخانقة إلى صدره، وضع سماعته على صدره وحين اطمأن أن أنفاسه رغم ضعفها منتظمة تنهد في ارتياح وهو يبتعد برأسه ويلتف للخلف ليستنشق هواء أكثر نقاء من ذلك المحيط بالعجوز.

كانت هناك زجاجة محلول مغذي معلقة بأوردة الرجل، فتحرك ليغادر الغرفة قبل أن يختنق بالرائحة العنيفة.

كانت سارة في تلك اللحظة هناك في الرواق بانتظاره كما يبدو، وخلفها كلباها الضخمان اللذان أصدرا زمجرة خافتة حين خرج من غرفة الملاحظة وكأنما تذكرا أنه خدعهما في المرة السابقة وغادر الوحدة الصحية من الخلف دون أن يشعرا.

ارتجف للحظة وكأنما رأي شيطانا لكنه تمالك نفسه بسرعة وهو يقول في لهجة اجتهد لتكون باردة:

-لابد أنك هنا لتقومي بصلواتك العظيمة من أجل المريض المحتضر.

تحركت نحوه وأجابت بابتسامة عذبة:

-دكتور عبد الوهاب. هل اعتدت أن تخاطب أصدقاءك بمثل هذا الجفاف؟

شعر بأنه يرى للمرة الأولى في حياته ابتسامة حية رقطاء، كان يبغضها تماما في تلك اللحظة، يبغضها ويخشاها في الوقت نفسه، رغم هذا تمالك نفسه وهو يجيب:

- وهل نحن أصدقاء حقا؟

- وهل فعلت بك شرا يدفعك للشك في ذلك يا دكتور عبد الوهاب؟

وجد نفسه يصرخ في وجهها:

- وماذا عن الدكتور أشرف، ألم يكن صديقك هو الآخر؟

اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

- إذا فقط انتهيت من قراءة مذكراته. هذا يسهل الأمر.

نظر إليها فتحي في خوف حقيقي، كان لا يرى هذه المرة فاتنة أجنبية غامضة، بل يرى امرأة خطرة. امرأة شريرة ملعونة، أراد أن يطردها من المكان كله، لكنه خاف في الواقع أن يغضبها في تلك اللحظة، وخاصة وأن كلبيها كانا يرمقانه في تحفز، ولا يكنان له الود الكافي ليرحموه لو أمرتهما بالاعتداء عليه، ورغم هذا قال:

- من أنت وماذا تريدين؟

- ما رأيك أن نخرج سويا وسوف أجيب على كل أسئلتك.

فقط امنحني بضع دقائق من أجل هذا المسكين.

قالتها سارة، ثم دلفت حجرة الفحص، وركعت أمام فراش الشيخ صالح. ضمت كفيها أمام وجهها وأغمضت عينيها وراحت بصوت هامس تردد صلواتها الغامضة. انتهت فغادرت الغرفة وتأبطت ذراع فتحي وقالت وهي تقوده للخارج:

-والآن هيا بنا لنستمتع بالتنزه في الرمال أسفل الشمس الدافئة هذا اليوم.

رمق فتحي الكلبين في توجس وغمغم:

-لن يصحبنا رفيقاك هذان.

ضحكت وهي تقول:

-كلا لن يفعلا. أعلم أنك لا تحبهما، ولهذا سينتظراني هنا .

تحركا سويا في صمت نحو الطريق المؤدي للمقابر، لكن سارة توقفت بغتة وهي تقول:

-ما رأيك لو ترى المعبد؟ لقد ذكره الدكتور أشرف في مذكراته بلا شك وأعتقد أنك قد تحب رؤيته.

أجابها في جفاء:

-أعتقد أن هذا أفضل من الذهاب للمقابر ومداعبة بنات آوى.

ضحكت ثانية وهي تتخذ طريق صخري يتجه نحو التلال الصخرية المرتفعة وهي تقول:

- كما تشاء يا دكتور. الطريق من هنا.

تحركا في الطريق الصخري لبعض الوقت في صمت. كان الطقس صحو هذا النهار وقد بددت أشعة الشمس الكثير من برودة الصباح، ولما طال الصمت والخوف والتساؤلات ترتع في صدر فتحي قال لها:

- من أنت يا سارة؟

أجابته في بساطة ومكر:

- لقد قلتها بلسانك. أنا سارة.

- لا أسألك عن اسمك. بل أريد أن أعرف ما الغرض الحقيقي لوجودك هنا، وأرجوا ألا تتحدثي عن الانثروبولوجي، ودراسة عادات الشعوب وكل هذا الهراء.

الطقوس التي رأيتها بعيني في المقابر لا علاقة لها حتما بمزاعمك تلك.

نظرت إليه بعينيها الزرقاوين وهي تجيب:

- لكنني لا أكذب عليك في هذا يا دكتور عبد الوهاب، أنا بالفعل باحثة في علوم الإنسانيات، وبخاصة في العقائد الوثنية القديمة والأديان السرية المنسية.

- وأنت هنا لأن دير النعمان مثلا، كانت مركزا لواحدة

من تلك العقائد الوثنية المنقرضة؟

هتفت في خيبة أمل مصطنعة:

- بل كل شبر في هذا البلد أيها المصري، يؤسفني أن أشعر بجهلك بتاريخ بلدك يا دكتور عبد الوهاب. وأنت مولود في أرض الفراعنة. أرض بتاح ورع وأمون وآتون وايزيس وأوزوريس وست وسخمت وغيرهم. أنتم مهد الديانات الأولى على هذا الكوكب أيها الطبيب. ألم تتعلم هذا في المدرسة؟

شعر بأنها تسخر منه، تجاهل هذا وهو يقول:

- بالطبع أعلم كل هذا، ولكني لا أذكر أن هناك ممارسات وعقائد سرية عند الفراعنة. أصغر باحث في علم الآثار سيخبرك بكل شيء عن تلك الالهة والمعتقدات المصرية القديمة.

ارتقيا تبة رملية مرتفعة، قبل أن تقول سارة:

-هناك آلهة ومعتقدات أخرى لم يذكرها كهنة الآلهة الرسميين في الدولة على جدران المعابد والمقابر أو مخطوطاتهم القديمة، ديانات خطيرة وقوية كانت موجودة واجتهد القدماء في طمس آثارها ودفع الجميع لنسيانها لأنهم يخشونها ولأنهم يرغبون في الحفاظ على مكتسباتهم التي ظفروا بها من عبادة آلهة الدولة الرسمية.

- لست أفهم شيئا مما تقولينه.

قالها فتحي في حيرة، فجذيته من ذراعه ليسرع قليلا وهي تتمتم:

-دعنا نرى المعبد أولا وستفهم الكثير هناك.

ارتقيا تلين كاملين قبل أن تظهر أمامها أطلال المعبد. وبعينين مبهورتين راح فتحي يتأمل تلك الأعمدة والجدران ونقوشها الكثيرة التي لم تنجح عوامل العراء وآلاف السنوات في طمسها. كان اغلب المكان مطمورا في الرمال كما يرى، ورغم هذا شعر فتحي بالضآلة وهو يتجول بين ما تبقى فوق الأرض من أعمدة أو جدران، ومن خلفه سمع صوت سارة وهي تقول:

- والآن ما رأيك؟

- مبهر بالطبع. لا أصدق ان معبد عظيم كهذا مطمور في رمال الصحراء ولا يعلم به أحد.

قالت سارة في فخر:

- انتظر قريبا حين نقوم بإزالة الرمال عنه لترى العظمة الحقيقية.

التفت إليها فتحي في استنكار ودهشة وهتف:

- أنتم من؟ يبدو أنك لا تعيين قوانين هذا البلد يا سيدتي. كل تلك الآثار ملك للدولة وهي وحدها لها الحق في الاعتناء بهذا المعبد.

-يبدو أنك من لا يعي حقيقة الوضع هنا يا دكتور.

ثـم راحـت تـدور حـول نفسـها وهـي تشـير بكلتـا يديهـا للمـكان كلـه وتقـول:

- هـذا المعبـد أنشـأه قبـل الاف السـنوات اتبـاع إلـه قديـم. أتبـاع إلـه قـوي للغايـة أخفـى كهنـة الدولـة حقيقتـه وحولـوه لمجـرد إلـه صغيـر فـي معابدهـم كـي لا يكـون لـه أتبـاع يهـددون عرشـهم. أنـت هنـا فـي حضـرة معبـده الأخيـر. هـذا هـو معبـد أنوبيـس أيهـا المصـري. وهـذا المعبـد ملـك لأتباعـه فقـط وليـس لأي واحـد آخـر.

كان فتحـي بالطبـع يعـرف مـن يكـون أنوبيـس. إلـه التحنيـط والموتـى فـي الدولـة المصريـة القديمـة. فهـل تزعـم تلـك المـرأة الغربيـة أنهـا هنـا لتعيـد عبادتـه ثانيـة بعـد آلاف السـنين مـن انتهـاء تلـك الحقبـة الوثنيـة مـن عمـر هـذا البلـد. حمقـاء بـلا شـك سـارة، ووجـد نفسـه يقـول سـاخرا.

- وأيـن هـم اتبـاع أنوبيـس هـذا؟ لقـد هلكـوا واختفـوا مـع معبودهـم المزعـوم منـذ الاف السـنين.

اقتربـت منـه بشـدة حتـى شـم رائحـة عطرهـا وهـي تجيـب بابتسـامة واسـعة وثقـة:

- مخطـأ مـرة أخـرى يـا دكتـور. أتبـاع انوبيـس لـم يختفـوا أبـدا كمـا تعتقـد. لقـد ظلـوا موجوديـن طـوال الوقـت، متواريـن عـن العيـون فـي انتظـار اللحظـة المناسـبة وقـد صـار الكثيـر منهـم فـي هـذه البلـدة الآن. ديـر النعمـان كلهـا مـن أتبـاع أنوبيـس.

***

راحت سارة تطوف بين جدران المعبد وهي تشير للنقوش المرسومة وتقول في نشوة:

- انظر يا دكتور، هل ترى، هذه عظمة القصة الحقيقية المدونة على هذه الجدران، إنها تحكي عن انوبيس القوي الذي يحكم بمفرده عالمين من عوالم البشر وليس عالم واحد.

كانت النقوش كثيرة جدا، وكان أنوبيس الذي يصوره الفراعنة كرجل برأس كلب أو رأس ابن أوى هو الشيء المشترك في أغلبها. في واحدة كان انوبيس يقف فوق منضدة عليها شخص ميت وهو يدعوه للعودة للحياة فجلس الشخص وقد رفع يديه نحوه في امتنان، في واحدة أخرى كان أنوبيس في مقدمة طابور طويل من الآلهة. هو الوحيد فيها الضخم القوي الذي يسير في عظمة وخيلاء، والباقون يسيرون خلفه في خضوع. اقترب فتحي بعينيه من تلك اللوحة فلاحظ أن أقدام الآلهة كلها مربوطة بالقيود. لوحة غريبة تصور باقي آلهة الفراعنة كأتباع لأنوبيس أو أسرى له.

في لوحة ثالثة كان أنوبيس يجلس على عرشة الذهبي وفي يده صولجانه وبين قدميه قعت حيوانات بنات أوى، وأمامه انحنى له في خضوع أشياء كالظلال الشيطانية، بأقدام حيوانية ورؤوس مخيفة وقد أحاطتها قرون قصيرة وطويلة. من الغريب أن تلك الأشكال تشبه الصورة الغربية للشيطان التي تعود لأيام المسيحية الأولى، الصورة المشتقة من إله المراعي عند الاغريق.

أبعد فتحي عينيه عن الجدران والأعمدة والتفت نحو سارة وقال في هدوء:

- لوحات متقنة وجميلة، لكنها رغم هذا لا تزيد عن حكايات وأساطير لطيفة ولا تعني شيئا.

أشارت سارة للجدران وقالت:

-انظر حولك جيدا يا دكتور عبد الوهاب وحاول أن تتمتع بعقل منفتح، إنها تحكي القصة الرائعة لأنوبيس العظيم.

قال فتحي في إصرار:

- مجرد ميثولوجيا فرعونية، أساطير قديمة عن آلة وثنية لا وجود لها ولا تعني شيئا.

- هل تؤمن حقا أن الآلهة القديمة مجرد قصص وحكايات قديمة لا أصل لها.

أجابها في ثقة وقد بدأ يشعر بألم في قدمه المصابة من أثر الوقوف الطويل:

- يا سيدتي، هذا العالم لا يحكمه غير إله واحد، هذا أساس عقائدي لا جدال فيه.

- هذا ما تقوله كرجل مسلم، لكن هناك الهندوس والبوذيين وأتباع كونفوشيوس والسيخ وغيرهم.

وجميعهم لا يرون الإله الحق كما تراه.

هتف فتحي محتدا:

- ماذا تعنين، هل تعنين أني على ضلال؟

- كلا بالطبع. بل أعني أن فكرة الإله الواحد أو الآلهة المتعددة التي تحكم العالم ليست واحدة عند جميع الشعوب، وكل واحد يرى إلهه الذي يعبده هو الإله الحق وما سواه في ضلال. هنا يأتي السؤال المهم، من من هؤلاء على صواب ومن على خطأ؟

في عصبية أجاب فتحي:

- نحن بالطبع على صواب. إنني كمسلم أتبع دين سماوي يؤمن بالأديان السماوية الأخرى لكنه يكفر بأي دين وثني.

- وأتباع أي دين آخر سيقولون القول نفسه لو طرحت عليهم نفس السؤال.

شعر فتحي أنها تجذبه نحو جدال سفسطائي لا نهاية له، فقال:

- وماذا عنك يا سارة، أي إله تتبعينه وتؤمنين به.

أجابته في بساطة:

-سيدهشك أن تعلم أنني ابنة لكاهن كاثوليكي متزمت. لكنني أتميز بأفق أكثر تفتحا ونظرة مختلفة

فـي الحيـاة والإلـه.

- هل تعنين أنك لا تؤمنين بالإله الذي يعبده أبوكِ.

- بـل أؤمـن بـه تمامـا، أنـا لسـت ملحـدة تمامـا كمـا تظـن، وأعلـم أن هنـاك إلـه عظيـم خلـق كل هـذا العالـم فـي البدايـة، لكنـي أعتقـد انـه بصـورة مـا صـرف انتباهـه عـن هـذا العالـم ولـم يعـد يعبـأ بـه. لنقـل إنـه قـد نسـى هـذا الكوكـب الضئيـل فـي الكـون ونسـى كل مـا عليـه مـن مخلوقـات ضعيفـة مسـكينة.

ارتجـف فتحـي مـن قولهـا، هـذا كفـر صريـح، ورغـم هـذا سـألها سـاخرا:

-ولهذا تبحثين عن آلهة أخرى عبدها القدماء لتتبعينها.

-ومـن قـال إنهـا آلهـة؟ يبـدو أنـك لـم تفهـم مقصـدي جيدا يـا دكتـور عبـد الوهـاب. أنـا لا أكفـر بإلـه السـماء، لكننـي كذلـك أعلـم انـه لـن يسـمعني حيـن أناديـه، ولـن يمنحنـي مـا أريـد لـو دعوتـه، أنـا أؤمـن أن هنـاك قـوى عظيمـة قديمـة حكمـت هـذه الأرض قبـل البشـر لحقـب طويلـة، تلـك القـوى كانـت قـادرة علـى قيـادة البشـر نحـو عالـم أفضـل، وبإمكانها أن تمنحـه مـا يرغـب فيـه لأنهـا ببسـاطة تعيـش فـي نفـس هـذه الأرض التـي يحيـا عليهـا البشـر وليـس فـي السـماء، تلـك القـوى القديمـة عبدهـا القدمـاء واعتبروهـا آلهتهـم.

-وأنوبيس واحد من تلك القوى.

اتسعت ابتسامتها وهي تجيب في حماس:

بـل هـو أعظمهـم. تخيـل واحـدا قـادر علـى السـيطرة علـى عالـم الأحيـاء والموتـى. هـذا عظيـم بصـورة لا تصـدق.

لم يتمالك فتحي نفسه فهتف مستنكرا:

- بل إن هذا هراء تام وجنون.

- ماذا تقول؟

أجابها في غضب وحدة:

- أقـول إنـك مختلـة يـا سـارة ومـن يتبعـك مختـل مثلـك ولا بـد أن ينتهـي هـذا الجنـون فـي الحـال.

- أتقـول هـذا وقـد رأيـت أنوبيـس نفسـه فـي الطقـس الأخيـر.

-حتـى لـو رأيـت ألـف واحـد مثلـه، مـا تتبعينـه فـي النهايـة يـا سـيدتي مهمـا تغيـرت المسـميات مجـرد شـيطان، ومـن الخيـر أن يوقـف أحـد مـا تقومـون بـه.

نظرت إليه طويلا، قبل أن تقول في توعد:

- ومن سيفعل هذا. أنت؟

- أنـا أو غيـري، لكـن صدقينـي كل هـذا الهـراء سـينتهي بـلا جـدال.

-هـل تعلـم أن كلماتـك تشـبه تمامـا مـا قالـه الدكتـور الدمـرداش، لقـد كان مثلـك واتهمنـي بالكفـر وقتهـا مثلمـا فعلـت ورفـض أن يصـدق.

غمغم فتحي في بطء:

- ولهذا قتلتموه.

- بل قتله عناده يا دكتور عبد الوهاب، وأتمنى ألا تستسلم لعنادك مثله. هنا في دير النعمان لا مكان لمن لا يتبعنا.

ارتجف فتحي وهو يفهم تلميحاتها المخيفة وقال بصوت مرتجف:

- هل هذا تهديد؟

استدارت ساره واندفعت لتختفي داخل حجرة مظلمة في أطلال المعبد دون أن تجيبه. إذا لقد انتهى وقت النقاش وقد أطلقت ساره تهديدها الأخير. لم يعد هناك معنى لبقائه داخل أطلال المعبد فاستدار هو الآخر، وقد شعر بثقل جسده وهمومه على قدمه المصابة وببطء راح يتسلق الصخور عائدا إلى الوحدة الصحية بمفرده هذه المرة.

***

(20)

حين عاد للوحدة لم يكن كلبا سارة هناك، كان هذا غريبا، ففي كل مرة كان يخرج فيها مع سارة كان الكلبان ينتظراها أمام باب الوحدة حتى تعود، فهل علما بصورة ما أن صاحبتهما لن تعود فرحلا؟

الأمر عجيب.

لم يجد عايدة هي الأخرى، وكما يبدو فإنها قد رحلت مبكرا للمرة الأولى منذ قدومه للمكان، فرغم أن الوحدة لم تعد تستقبل أي مرضى في الصباح وأنه لا يوجد عمل حقيقي للوحدة الصحية الآن إلا أن عايدة ظلت ملتزمة بمواعيد العمل في القدوم والذهاب.

لابد أنها في أسوء حال ممكن، وبالطبع كان من العسير عليها احتمال فقدان ابنها.

كان مريضه الوحيد على حاله. عجوز محتضر في انتظار معجزته ليشفى من مرضه. وفي مقابل يموت صبي في مقتبل عمره لم يظفر بحظه من الدنيا بعد.

أمر غير منصف أو عادل.

بل هو أمر شرير شيطاني وملعون.

رمق المريض في كراهية وهو لا يدري هل يدرك المريض حقا الثمن اللازم لكي يشفى، وهل يعلم أن حياة طفل ستزهق من أجله؟

لـو كان يعلـم فهـو مثـل سـارة والباقيـن، مجـرد مجـرم لا يسـتحق أي شـفقة منـه.

وجـد نفسـه يفكـر للمـرة الأولـى فـي فعـل شـرير للغايـة بـدا فـي تلـك اللحظـة وكأنـه الحـل الوحيـد لإنقـاذ لبيـب ابـن عايـدة.

ماذا لو قتل الشيخ صالح الأن؟

وقتهـا لـن يكـون هنـاك معنـى لقتـل لبيـب بـلا شـك وقـد مـات العجـوز.

كان الأمـر بسـيطا والشـيخ أمامـه يرقـد فـي عجـز ولا يقـدر علـى دفـع مجـرد ذبابـة تزعجـه، كل مـا عليـه فعلـه هـو ضـخ الهـواءِ بمحقـن فـارغ فـي أوردتـه، أو حتـى وضـع وسـادة فوق وجهـه لبضـع دقائـق وبعدهـا سـينتهي الأمـر.

لكن هل سيعلم أحد بجريمته تلك؟

وكأنمـا هنـاك مـن يقـرأ أفـكاره سـمع بجـوار أذنـه حفيـف مكتـوم غاضـب، التفـت فـي فـزع إلـى مصـدر الصـوت ليتفاجـأ بالقـرد المخيـف فـي الناحيـة الأخـرى مـن الغرفـة وهـو يكشـر عـن أنيابـه فـي غضـب حقيقـي وقـد تحولـت عينـاه مـن اللـون الأصفـر الفسـفوري للـون دمـوي أحمـر.

تحـرك القـرد نحـو الفـراش فتراجـع فتحـي للخلـف وهـو يفكـر فـي فـزع كيـف بـرز القـرد فجـأة مـن العـدم، وهـل كان يقـرأ أفـكاره؟

من خلفه جاءته الإجابة. سمع صوت يهمس في خفوت:

- إنـه يعلـم مـا تفكـر فيـه ولـن يدعـك تقتـل العجـوز. لـو كنـت مكانـك لغـادرت الغرفـة قبـل أن يقـوم بإيذائـك.

التفـت بسـرعة ليجـد كل أشـباح رفاقـه هنـاك، يتراجعـون مثلـه بظهورهـم للخلـف ليغـادروا الغرفـة قبلـه، شـعر أنـه مـن الحكمـة أن يفعـل مـا طلبـوه منـه، ولهـذا أسـرع مغـادرا المـكان وهـو يراقـب مـكان القـرد المنـذر بالشـر ثـم صعـد إلــى غرفتـه.

كان متأكــدا أن هــذا القــرد المخيــف ليــس أحــد الحيوانــات، إنــه بــلا شـك أحـد الجـان أو المـردة أو الشـياطين، وربمـا هـو هنـا الآن لحمايـة العجائـز مـن أي خطـر حتـى تتـم الطقـوس، راوده فــي تلــك اللحظــة خاطــر مفــزع، مــاذا لــو صعــد القــرد إليـه فـي غرفتـه وقـرر قتلـه مثـلا؟

كيف يقاوم حينها شيء كهذا وكيف يحمي نفسه منه.

شـاعرا بالرعـب التقـط مصحفـه الـذي وضعـه فـي حقيبتـه وهــو قــادم مــن القاهــرة وفتحــه وبــدأ يقــرأ فيــه وهــو يرتجـف، بالخـارج عـاد الطقـس الشـتوي للمـكان لتقلباتـه وأظلمـت السـماء رغـم أن الوقـت لازال نهـارا بفعـل السـحب السـوداء ونشـطت الريـاح وهطـل المطـر بغـزارة.

مضــى الوقــت ببــطء وفتحــي لا يــزال يقــرأ فــي مصحفــه، ويشـرب أكثـر مـن علبتـي سـجائر. شـعر بعبدالنبـي وهـو يضـع صينيـة الطعـام أمـام بـاب غرفتـه كالعـادة، لكنـه لـم

يكـن يشـعر بـأي شـهية للطعـام. راوده فـي تلـك اللحظـة هاجـس مخيـف، أن يقـوم أهالـي البلـدة بتخديـره أو تنويمـه حتـى تتـم الطقـوس بـدس منـوم فـي الطعـام مثلمـا فعلـوا مـن قبـل مـع الدكتـور أشـرف.

لـن يتنـاول مـن طعامهـم غيـر الخبـز فقـط والـذي غالبـا لـن يفكـروا فـي دس أي شـيء فيـه.

أظلـم الفضـاء بالخـارج أكثـر وأكثـر مـع قـدوم الليـل وظلـت السـماء تصـب المـاء فـوق البلـدة فـي جنـون دون أن تلـوح أي بـادرة للهـدوء، ورغـم الريـح التـي تعـوي وتضـرب النافـذة الزجاجيـة بـلا انقطـاع سـمع عـواء الذئـاب وصريـخ بنـات آوى قـادم مـن بعيـد. تحـرك نحـو النافـذة فـي خـوف فـرأى الحشـد القـادم مـن البلـدة نحـو الوحـدة الصحيـة. يبـدو أنهـم قادمون للقيـام بطقوسـهم الليلـة، دون أن يمنعهـم الطقـس السـيء.

شـاعرا بالخـوف أحكـم إغـلاق بـاب حجرتـه وجـر الفـراش بصعوبـة ووضعـه خلـف البـاب ليمنـع أي أحـد مـن اختراقـه لـو فكـروا فـي الصعـود إليـه، ثـم عـاد لاهثـا إلـى النافـذة.

كان الحشـد قـد بلـغ الوحـدة الصحيـة، وبإيقـاع رتيـب مخيـف بـدأوا أنشـودتهم المخيفـة بتلـك اللغـة القديمـة المنسـية، راح فتحـي يرتجـف وهـو لا يـدري إن كان هـذا بفعـل البـرد أم هـو الخـوف.

رأي الشـيخ صالـخ يخـرج مـن بـاب الوحـدة الصحيـة الداخلـي ويتجـه نحـو الحشـد ثـم يتوقـف أمامهـم وهـو يـردد معهـم أنشـودتهم المريعـة. لاحـظ فتحـي قدميـه النحيلتيـن

كعـودي ثقـاب والتـي مـن المسـتحيل أن تكـون قـادرة علـى حمـل طفـل صغيـر، ومـع هـذا هـا هـو يقـف فـي العـراء ثابتـا كالطـود.

اتجـه نحـو الكومـود والتقـط علبـه سـجائره واسـتعد ليشـعل إحـدى لفافـات تبغـه، كان بحاجـة لاسـتعادة رباطـة جأشـه، لكنـه رأي علـى ضـوء عـود الثقـاب الرائـد الصـول إبراهيـم التهامـي فـي مواجهتـه وهـو يهتـف محـذرا:

- خطأ أيها الجندي الأحمق، لا تدع العدو يشعر بوجودك.

قالهـا ونفـخ فـي عـود الثاقـب المشـتعل فانطفـأ، فـي نفـس اللحظـة التـي شـعر فيهـا فتحـي بدفقـة الهـواء البـارد التـي أطفـأت عـود الثقـاب. وفـي الظـلام الـذي عـاد ليغمـر الغرفـة لـم يعـد هنـاك أثـر لأشـباح رفاقـه.

رقـد علـى فراشـه وجـذب الغطـاء فوقـه وهـو يرتجـف، وبـكل مـا داخلـه مـن فـزع راح يـردد فـي سـره مـا يحفظـه مـن القـرآن الكريـم، تداخلـت الآيـات فـي عقلـه لكنـه لـم يتوقـف، ورغـم انصـراف الحشـد عـن المـكان وعـودة الهـدوء بالخـارج ظـل فتحـي مسـتيقظا أسـفل الغطـاء فـي ترقـب، لكنـه ودون أن يشـعر غـرق فـي نـوم ثقيـل.

***

يعـد بضعـة أحـلام مرعبـة أفـاق فتحـي مـن نـوم مضطـرب جعـل رأسـه تنبـض فـي قـوة والصـداع المريـع ينهـش خلايـا مخـه. أشـعل سـيجارة وأوقـد السـبرتاية ليعـد فنجـان كبيـرا

من القهوة، جلس فوق الفراش يرتشف القهوة في بطء وهو يستعيد تفاصيل الأحلام أو الكوابيس التي لم تفارقه في نومه لحظة واحدة.

في واحد منها كان في مكان مضطرم باللهب، وكان جسده هو الآخر مشتعلا بالنار، كان يصرخ في ألم رهيب وكأنه يحترق في الواقع، ومن بين اللهب الذي يحيط به برز مارد مخيف من نار، له جسد ضخم ورأس كلب، وبصوت قادم من قاع جهنم صاح المارد متوعدا:

- اتبعني أيها الفاني أو تهلك.

كان من المستحيل عليه في تلك اللحظة أن ينطق بأي حرف والنار تذوب جسده، في تلك اللحظة شعر أنه الموت، لكنه أفاق بغتة ليُنقذ من معاناته.

في حلم آخر كان راقدا على صخرة ضخمة كالمذبح، كان رجال بلدة النعمان جميعا يحيطون به، ورغم أنه لم ير أي قيود تقيد جسده إلا كان عاجزا عن الحركة تماما. رأي لبيب هناك، وعايدة وعبد النبي والشيخ صالح، ومن قلب البئر خرجت سارة والقرد المخيف خلفها. كانت ترتدي ثوبا كهنوتيا أبيض، كثياب الكهنة الفراعنة، وفي عنقها قلادة ذهبية ضخمة. اقتربت منه بجمود ثم مرة واحدة ضربته بخنجر في يدها وفصلت رأسه عن جسده.

الغريب أنه لم يشعر أنه يموت، وأن رأسه الملقاة على الأرض ظلت ترى وتسمع كل ما يحدث حوله، كانت القبور هناك تحيط بالمكان. تماما كما كانت في العالم

الحقيقـي، وأمـام أبوابهـا المظلمـة كانـت اشـباح رفاقـه هنـاك تنتظـر لـه فـي سـعادة وتشـفٍ. رأي سـارة تشـير لهـم فأفسـحوا المـكان أمـام أبـواب القبـور لتخـرج مـن قلـب القبور المعتمـة العشـرات مـن بنـات أوى بشـكلها المريـع المقبـض، وكلهـا اتجهـت نحـوه علـى الفـور، وفـي وحشـية راحـت تمـزق جسـده. كان الجميـع مـن حولـه يضحكـون فـي سـخرية وسـعادة، ورغـم أن رأسـه قـد انفصلـت عـن جسـده فقـد ظـل يشـعر بالأنيـاب المتوحشـة التـي راحـت تمـزق جسـده البعيـد عنـه، كان يصـرخ فـي فـزع وألـم حيـن شـعر باليديـن اللتيـن ترفعـان رأسـه المقطـوع ثـم تديرهـا لتكـون فـي مواجهـة وجهـه، كان صاحـب اليديـن هـو القـرد، وفـي تلـك اللحظـة كان وجهـه يقطـر بالغضـب، ثـم قـال وهـو يضغـط الـرأس مـن الناحيتيـن بعنـف كاف لتهشـيمه:

-ستموت لو لم تخضع أيها الفاني.

شـهق فتحـي بقـوة ثـم صـرخ، ليفتـح عينيـه وهـو يتنفـس فـي عنـف ولهـاث. كان فـي غرفتـه المظلمـة راقـدا علـى فراشـه، وحيـن اسـتدار للناحيـة الأخـرى مـن الفـراش صـرخ فـي فـزع هائـل. كانـت رأس القـرد مقطوعـة وملقـاة فـي جانـب الفـراش وكان وجههـا فـي مواجهتـه، والـدم يقطـر منهـا، قـوة مجهولـة كتمـت صرختـه فـي حلقـه حينهـا، قبـل أن يفتـح القـرد عينيـه الصفراويـن وينظـر نحـوه فـي غضـب وكـره وهـو يقـول:

-ستموت لو لم تخضع أيها الفاني.

وحين نجح في إطلاق صرخة جديدة فارق الكابوس هذه المرة بالفعل، لكن قلبه المرتجف ظل يدق بعنف بعدها لوقت طويل. أدرك أنه حلم مركب، حلم بداخل الحلم. أكثر الأحلام وحشية وعنفا. العجيب أنه رغم كل تلك الكوابيس الكافية لتهجير النوم من عينه ليوم كامل كان سرعان ما يعود للنوم ثانية بعدها ليدخل في كابوس جديد، وكأنما تقوم قوي شريرة خفية بإنهاكه وتحطيمه بالكوابيس.

الكابوس الأخير الذي يذكره كان في صحراء سيناء. في وحدته يقاتل مع رفاقه عدوا يفوق قدراتهم. كانت الطائرات تطلق فوق رؤوسهم قنابل مريعة تنفجر عشرات المرات وليس مجرد مرة واحدة، من حوله راح رفاقه يتساقطون، الرائد محمد هاشم وغريب الطويل والصول إبراهيم وجورج ملاك وسعيد المسيري.

كان يصرخ حينها في ألم وعجز وقهر وهو يرى أشلاء رفاقه والدماء تتفجر من حوله مصحوبة بالقذائف وطلقات الرصاص، وفجأة اختفت الطائرات واختفت التفجيرات، ووجد نفسه مرة واحدة وحيدا في الصحراء. يتحرك بضعف شديد والقيظ يحرق حلقه أسفل شمس ملتهبة لا ترحم. أظلمت الدنيا حينها من حوله فتوقف شاعرا بالخوف. وفجأة راحت الجثث الممزقة تخرج من قلب الرمال، جثث رفاقه في الوحدة العسكرية، الكل راح يخرج من قلب الرمال، ورغم إصابات أغلبهم التي لا يمكن بأي حال أن تسمح لهم بالمشي فقد أخذوا

يسـيرون نحـوه بأطـراف ممتـدة إليـه تريـد الإمسـاك بـه، قبـل أن يقولـوا فـي صـوت رتيـب:

-ستموت أيها الفاني، انتظر كي تلحق بنا.

ثـم شـعر بالأيـادي التـي انبثقـت مـن الرمـال أسـفل منـه وأمسـكته مـن قدميـه وقيدتـه فـي مكانـه حتـى بلـغ مكانـه الرفـاق فراحـوا يجذبـون أطرافـه فـي كل اتجـاه وكأنهـم يبغـون تمزيقـه، ومـن وسـط صراخـه ظهـر وجـه بيـن صفـوف الموتـى. كان القـرد اللعيـن. ومـرة أخـرى أمسـك جانبـي رأسـه بقـوة وقـال منـذرا:

- ستموت لو لم تخضع أيها الفاني.

وكان هذا هو الكابوس الأخير الذي استيقظ منه.

التصرف الوحيد العاقل أمام ما يواجهه الآن هو الهرب.

أشـعل لفافـة تبـغ ثالثـة وراح يفكـر، هـل مـازال الهـرب ممكنـا أم أن الوقـت قـد فـات؟

لكـن مـاذا عـن عايـدة التـي اسـتعانت بـه لنجـدة ابنهـا؟ كان يعلـم أنـه مـن المسـتحيل تقريبـا أن ينجـح فـي إنقـاذ الصبـي، إنـه فـي النهايـة مجـرد طبيـب ذو سـاق بهـا إعاقـة كبيـرة، ولـن يسـتطيع حتمـا مواجهـة بلـدة ملعونـة بأكملهـا.

لكـن كيـف سـينجح فـي الفـرار وهـو لا يـدري كيـف وإلـى أيـن يتجـه والصحـراء الشاسـعة تحيـط بالبلـدة مـن كل اتجـاه ولا توجـد وسـيلة مواصـلات متاحـة فـي البلـدة كلهـا؟

حتى ناصر البربري لن يأتي قبل يومين كما وعده، هذا بالطبع لو كان رجلا شريفا يحافظ على كلمته.

يمكنه أن ينتظر في الوحدة الصحية، يمكنه ألا يحاول التدخل بأي صورة فيما يدور حوله وأن يحافظ على حياته حتى موعد حضور ناصر البربري ثم يغادر المكان بعدها للأبد ولا يعود إليه ثانية.

كان هذا حلا ينطوي على الكثير من الجبن، لكنه لو نجح سيضمن له الحياة.

وجد نفسه يبتسم في أسى، تذكر رفاقه الموتى، تذكر أشباحهم التي تطارده طوال الوقت وكأنما تؤنبه لأنه لم يمت معهم أو لأنه لم يدافع عنهم كما يجب فماتوا هم وعاش هو بمفرده، هل سيحتمل شبح جديد يضاف إلى رفاقه، شبح لبيب الصغير.

- كلا.

قالها وهو يلقى بالسيجارة أسفل قدمه ويدهسها في عنف شديد بقدمه السليمة، ثم يتجه إلى دولاب ملابسه ويبدل ملابس النوم ويفكر في سرعة.

ما الذي يخشاه؟

هل يخاف من الموت؟

وهل كان الموت بعيدا عنه قبل الآن، ألم يواجهه مرارا في قلب الصحراء حين بدأت المعركة، ألم يشاهده في

رفاقه الذين قتلوا أمام عينه وغيرهم، ألم يواجهه وهو تائه في قلب الصحراء قبل أن يعثر عليه البدو وينقذونه.

لقد واجه الموت عشرات المرات ورغم هذا فقد عاش. وربما كان هذا لحكمة كان يجهلها حينها.

ربما ادخره القدر للحظة كهذه، وربما كان الموت هو خير علاج من همومه الكثيرة.

في ركن قصي بعيد عن الشمس في الغرفة ظهر صديقه غريب الطويل في واحدة من تلك المرات القليلة التي يظهر فيها في وضح النهار، رمقه في نظرة أسى قبل ان يهمس:

- كلا أيها الأحمق. لا تفكر في شيء مجنون واهرب.

لكنه ودون أن ينظر نحوه صرخ في عنف:

- كلا.. يكفي كل ذلك الوقت من الهروب.

لقد هرب أمام الإسرائيليين وهرب من القاهرة ليبتعد عن ذكرى خطيبته التي خانته، ألن يتوقف يوما عن الهرب؟

لم تكن عايدة بالأسفل. لم يكن هناك غير المريض. تجاهله فتحي وغادر المكان كله.

وبخطوات واثقة تعرف طريقها تحرك في إصرار وسرعة رغم قدمه المصابة.

كان متجها للبئر.

سوف يحاول انقاذ لبيب.

❋❋❋

(21)

أمـام فتحـة البئـر الواسـعة المظلمـة أدرك كـم هـو أحمـق حيـن جـاء إلـى هنـا متخيـلا أن بإمكانـه أن ينقـذ الصبـي، مـاذا لـو كان المـارد هنـاك داخـل البئـر؟

بالطبع سيقتله في غمضة عين.

وماذا لو وجد أتباع سارة بانتظاره بالأسفل؟

سيقضون عليه بسهولة وهو لا يملك أي شيء يدافع به عن نفسه غير سكين الطعام الصغير الذي أحضره معه من الوحدة الصحية ووضعه في جيبه، ربما طعن به أحدهم، لكنه لن يقوم بما هو أكثر من هذا وسيغدو بعدها بلا سلاح يحميه.

وماذا عن الهرب من البئر، لو نجح مثلا في مسعاه وأنقذ الصبي؟

هل تساعده قدمه المصابة على الجري والعدو؟

راح يرمق جوف البئر البعيد المظلم، وابتسم وهو يقول لنفسه :

- امض في حماقتك الأخيرة حتى النهاية يا فتحي ولا تتراجع الآن، حتى لا تتهم نفسك بالجبن ما بقي لك من العمر.

كان الوقت ظهرا وتوقع ألا يجد هنا أي أحد من أهالي

البلدة، حتما هم نائمون الآن في بيوتهم، وسارة في طريقها حتما إلى المريض في الوحدة الصحية لتقوم بصلواتها الغامضة من اجله، ولا خطر هناك قد يكون بانتظاره باستثناء الحيوانات، الذئاب أو بنات آوى. من دراسته السابقة كان يعلم أن تلك الحيوانات تنشط في الليل غالبا، وهناك احتمال كبير ألا تعترض طريقه في قلب النهار.

كان هناك حبل من الليف القوي مثبت في عارضة خشبية يتدلى داخل البئر، وكان هناك درج من الحجارة في جانب البئر، والاثنان يمتدان داخل البئر نحو الظلام دون أن يلوح لهما نهاية. تأكد من قوة احتمال الحبل ثم أمسكه بقوة كي يتمسك به لو انزلقت قدمه فوق الدرج الحجري.

تسلق الجدار حول البئر ثم بدأ يهبط الدرج بحذر شديد كي لا يسقط. كانت الدرجات الحجرية صغيرة وبالكاد كان قادرا على الوقوف عليها، لابد أنهم قد استخدموا تلك الدرجات قديما للهبوط لجوف البئر لتنظيف مياهه أو إخراج شيء منه لو احتاجوا لهذا.

بيده وقدمه راح يهبط ببطء. بدأ الظلام يحيط به رويدا رويدا، وراحت فتحة البئر من فوقه تبتعد أكثر وأكثر حتى صارت مجرد نقطة من الضوء وسط الظلام لا أكثر.

كان يشعر بالفزع مع كل خطوة يهبطها، كان الظلام يخيفه، وخياله المتوقد يخيفه أكثر، وقد راح يصور له

عشرات الاحتمالات المفزعة، ما الذي يخفيه الظلام من حوله، هل مجرد جدار حجري زلق مغطى بالطحالب، أم هناك ما هو أخطر. يقولون إن الآبار مسكونة بالمردة والعفاريت والجان. ماذا لو وجد أمام وجهه واحد منهم الآن.

تذكر هيئة أنوبيس فغمغم لنفسه أنهم لن يكونوا أكثر رعبا أو خطرا منه، فلماذا يخاف إذا؟

بعد وقت من الهبوط غرق تماما في الظلام واختفت فتحة البئر تماما عن عينيه، ومازالت الدرجات الحجرية أسفل قدمه لم تنته بعد، وكذلك الحبل في يده لم يصل لنهايته هو الآخر. شعر للحظة وكأن تلك الدرجات الحجرية تمتد حتى باطن الأرض بلا نهاية، لكنه الحبل انتهى مرة واحدة في نفس اللحظة التي وصلت فيها قدمه لنهاية البئر.

توقف للحظة وهو يلهث كي يهدئ من روعه ويسترد جنانه، وهو يكتم صوت أنفاسه وكأنما يخشى أن توقظ الشياطين الرابضة في الظلام. وبعد نحو دقيقة أخرج علبة ثقابه وأشعل أحد أعوادها ليرى المكان. كان البئر متسعا وكانت الجدران من حوله والحجارة أسفل قدمه جافة تماما. هذا يعني أن البئر قد نضبت مياهها منذ زمن بعيد، لكن الذي أصاب قلبه بالارتجاف كانت تلك الفجوة الضخمة في جانب البئر والتي عجز ضوء عود الثقاب عن اختراقها.

هـل تكـون الإجابـات خلـف تلـك الفجـوة أم فقـط هـو المـوت مـا ينتظـره بداخلهـا وابتسـامة سـاخرة ترتسـم علـى وجهـه.

ظهـرت أشـباح رفاقـه فـي ركـن مـن أركان البئـر فـي نفـس اللحظـة التـي انطفـأت فيهـا عـود الثقـاب. وبينمـا أخـرج عـود ثقـاب آخـر ليشـعله راحـوا يهمسـون فـي الظـلام فـي أذنـه فـي تحذيـرات اختلطـت ببعضهـا:

- مـا الـذي تفعلـه أيهـا الجنـدي المغفـل، مـاذا تفعـل هنـا؟ هـل تريـد المـوت؟!

- اهـرب يـا فتحـي، اهـرب بسـرعة، أنـت لا تعلـم يـا صديقـي الهـول الـذي ينتظـرك.

- عـد أدراجـك يـا أحمـق، خلتـك أذكـى مـن أن تقتـرف حماقـة كهـذا.

- فـر بجلـدك يـا دكتـور، إنهـم لـم يشـعروا بـك بعـد، لكنهـم قريبـا سـيفعلون.

شـتت الأصـوات ذهنـه ووجـد نفسـه يفشـل فـي إشـعال عـود الثقـاب فهشـمه بأصابـع يـده ووجـد نفسـه يصـرخ فـي توتـر ممتـزج بالغضـب:

- صمتا.

ثـم نـدم علـى صراخـه علـى الفـور حيـن تـردد صـدى كلمتـه بيـن جـدران البئـر وداخـل الفجـوة المظلمـة فـي إيقـاع مخيـف جعلـه يرتعـش، كانـت صرختـه كفيلـة فـي وقـت

كهذا بإيقاظ جيش للموتى، عض شفته السفلي في غيظ وهو يؤنب نفسه، لماذا لم يتحكم في أعصابه أكثر، ولماذا صرخ؟

لو كان هناك من يعيش في قلب تلك الفجوة فقد انتبه إليه حتما.

ظل لنحو الدقيقة أو أكثر متجمدا في مكانه في الظلام كاتما أنفاسه، وقد أرهف سمعه ليرى إن كان هناك من شعر به فنهض ليستطلع الأمر أم لا. راح قلبه يدق في عنف داخل صدره وراح صوت ضرباته يتردد كقرع القبول في أذنيه، في تلك اللحظة سمع في داخل أذنه همسة توسل بصوت ممرضه جورج ملاك:

- اهرب الآن يا دكتور. اهرب ارجوك.

لكنه قطار الحماقة قد غادر محطته ومضى كثيرا في طريقه ومن العسير إقناعه بالعودة الأن، لذا وجد نفسه دون أن يشعر يشعل عود ثقاب آخر. رأى أشباح رفاقه يسدون مدخل الفجوة وكأنما يرغبون في منعه من التقدم. وللمرة الأولى يرى نظرة الإشفاق تلك في وجوههم وأعينهم الشاحبة، رغم هذا اندفع نحوهم واخترق أجسادهم الأثيرية ودخل الفجوة.

بعد أمتار قليلة لاحظ المشاعل الموزعة على الجدران، مع الوهج الأخير لعود الثقاب أشعل واحد آخر وبلا تردد تحرك نحو الجدار والتقط أحد المشاعل وأشعله بعود الثقاب. صارت الرؤية أكثر وضوحا الآن، وأدرك أنه في

قلب فجوة جدرانها وسقفها من الحجارة، بدا الأمر وكأنه يتحرك داخل كهف في قلب الجبل. كان هناك الكثير من المشاعل على الجدران، بانتظار شرارة النار كي تتوهج وتحيل ظلام المكان إلى نهار. لاحظ كذلك حين نظر للخلف أن رفاقه لم يتبعوه لداخل الفجوة.

هل تخشى الأشباح دخول هذا المكان، وهل هناك خطر قد يخشاه المرء بعد موته؟!

كانت قدمه تؤلمه، ورغبة عارمة تتصاعد في داخله تدعوه للتوقف والفرار إن كان هذا الخيار لا زال ممكنا، كان يدرك أن التردد لو تملكه فلن يمضي إلى أي مكان الآن، لذا تجاهل كل هذا واندفع في قوة نحو أعماق الفجوة.

بعد نحو الدقيقة ضاق الممر كثيرا حتى صار يكفي عبور جسده فقط، ثم سمع أنين خافت يأتي من مكان ما. توقف للحظة ودار بجسده ليتبين من أين يأتي، فشل في هذا فقرر أن يواصل التقدم.

ازداد صوت الأنين وضوحا، كان أنينا بشريا. ارتجف جسده وهو يتقدم ببطء، حتى وصل لفجوة في الممر على يساره، دفع ضوء اللهب داخلها فرأى رجلا هزيلا، احترق أغلب جسده، ومقيد بقيود من حديد إلى الجدار.

إنه مصدر ذلك الأنين بلا شك. كانت الرائحة هناك مريعة، خليط من رائحة لحم محترق وعفن وكبريت. متوترا دلف فتحي الفجوة فغطى ذلك الشخص عينيه

بيـده الغيـر مقيـدة وهـو يهتـف فـي صـوت ضعيـف:

-أبعد ذلك الضوء عني.

-من أنت؟

قالهـا فتحـي وهـو يخفـي ضـوء اللهـب خلـف ظهـره، تأملـه فتحـي للحظـات، كان مصابـا فـي أغلـب جسـده بحـروق رهيبـة أذابـت جلـده وعضلاتـه، لـم يـر فـي حياتـه مثـل هـذا القـدر مـن الحـروق فـي إنسـان حـي، كان يعلـم أنـه بحاجـة لإسـعاف عاجـل.

- أنت الطبيب الجديد، أليس كذلك؟

قالهـا الرجـل وهـو يجاهـد ليرسـم ابتسـامة علـى وجهـه، فشـعر فتحـي بالتوتـر فهمـس:

-هل تعرفني؟

- كلا. إنه مجرد تخمين؟

-لـم تجـب علـى سؤالي بعـد. مـن أنـت، ومـن الـذي فعـل بـك هـذا؟

- ألا تعلـم حقـا؟ أنـا الدكتـور أشـرف الدمـرداش. ألـم تقـرأ مذكراتـي؟

تأملـه فتحـي للحظـات، كان يشـبه صـورة الطبيـب بالفعـل. فقـط تغيـر كثيـرا بفعـل الهـزال والحـروق، إذا فهـو محبـوس هنـا ولـم يمـت كمـا اعتقـد. اندفـع نحـوه وهـو يقـول:

- دعني أفك قيودك أولا.

-لا داع لهذا. لقد فات الوقت، فقط استمع إليّ.

- أنت بحاجة لعلاج عاجل.

- بل أنت من لا يدرك الحقيقة، هل تريد نصيحة لن تحظى بمثلها في هذا المكان. غالب عنادك واتبع أنوبيس.

قالها بصوت أكثر قوة من صوته الواهن القديم. تراجع فتحي للخلف لخطوتين في قلق، فلاحظ بجانب عينيه أنه هناك ظل مريب يتحرك خلف ظهره، وبينما يستدير للخلف بسرعة انطفأ ضوء المشعل بغتة فغرق المكان في الظلام. شهق فتحي متوترا واستدار ثانية نحو البقعة المقيد فيها الدكتور أشرف، هذه المرة لم يتمالك نفسه أكثر وهو يرى عينين دمويتين في الظلام حيث كان الدكتور أشرف وهما تحدقان نحوه في ثبات وشر.

كادت قدمه المصابة تتهاوى لولا أن تمالك نفسه وأسرع بإيقاد عود ثقاب. هذه المرة لم يجد الدكتور أشرف فقط كانت هناك بقايا عظام بالية مكومة لشخص مات بلا شك منذ زمن. تراجع للخلف في خوف حقيقي وهو يفكر، هل تخص تلك العظام الدكتور أشرف، وهل كان يتحدث منذ لحظات إلى شبحه؟

كان يشعر بفزع حقيقي هذه المرة، فزع لم يتخيله من قبل، قرر أن يعود أدراجه لكن الممر من حيث أتى كان

مسدودا بجدار صخري. راح يتحسسه في جنون وهو يهمس لنفسه:

- لقد كان هنا. أنا متأكد. أين اختفي ذلك الممر الملعون؟

ثم خبا ضوء عود الثقاب. أسرع بإشعال واحد آخر ومع أول ضوء له فتح عينه ليجد أنه لم يكن بمفرده، كان هناك الكثير من الصبية يحيطون به، صبية بعيون بيضاء تماما ووجوه زرقاء. وجميعهم ينظرون إليه في شر. سقط عود الثقاب من يده ليسود الظلام مرة أخرى، وهو يصرخ في رعب ويده تضرب الفراغ من حوله:

- كلا ابتعدوا عني أيها الشياطين. ابتعدوا عني.

ورغم الظلام اندفع للأمام ليهرب من الصبية ذوي الوجوه الزرقاء. اصطدم رأسه بجدار وشعر بالدماء الساخنة تسيل على جبهته ودوار عنيف يحيط برأسه لكنه تمالك نفسه ونهض بسرعة وواصل السير في الظلام وهو يمد يديه أمامه ليتحاشى بهما أي عائق. اصطدمت قدمه السليمة بجانب الجدار فصرخ من شدة الألم وهو يواصل التحرك ببطء أكثر معتمدا على قدمه المصابة وبعد بضعة أمتار انقطعت أنفاسه تماما وشعر أنه غير قادر على مواصلة الحركة ولو لمتر واحد آخر.

توقف بمكانه وراح يسترق السمع في الظلام في هلع ليتأكد إن هناك خطر يتربص به في الظلام. ما سمعه لم يكن غير أنفاس منتظمة لبضعة اشخاص يختفون

فـي الظـلام. إنـه ليـس وحـدة فـي الظـلام إذا، هنـاك آخـرون غيـره.

تمنـى مـن الرعـب أن يفقـد الوعـي، وألا يفيـق ثانيـة، كـي ينتهـي كل هـذا الفـزع الـذي يشـعر بـه، لكـن هـذا لـم يحـدث مـن سـوء حظـه، لـم يكـن هنـاك بـد مـن أن يشـعل عـود ثقـاب جديـد ليـرى أي خطـر يحيـق بـه.

هـذه المـرة وجـد أنـه غيـر محـاط بالخطـر كمـا توهـم. كان يقـف فـي فجـوة حجريـة أخـرى وهنـاك علـى الأرض تكـوم الرجـلان العجـوزان اللـذان جلبـا الشـيخ صالـح للوحـدة الصحيـة وفـي ركـن آخـر كان لبيـب يرقـد نائمـا.

تلفـت حولـه فلـم يـر أي شـيء آخـر. ظـل فـي مكانـه للحظـات حتـى اسـتعاد أنفاسـه وبعـض قوتـه وقـد تذكـر مهمتـه الأساسـية، إنقـاذ لبيـب. فـي نفـس الوقـت الـذي انتبـه فيـه ثانيـة للمشـاعل المعلقـة بالجـدار. أشـعل واحـد منهـا وأمسـكه بيـد ثـم اتجـه نحـو لبيـب وحملـه فـوق كتفـه وعـاد ثانيـة للممـر الصخـري. كان مفتوحـا فـي اتجـاه واحـد، ورغـم أنـه لا يعلـم إن كان هـذا الاتجـاه يقـوده نحـو الحريـة أم هلاكـه فقـد تحـرك فيـه. هـذه المـرة كان ضـوء مشـعله ضعيفـا وبالـكاد كان ينيـر أمامـه لبضـع خطـوات فقـط.

بعـد وقـت قصيـر بـدأت ظـلال مرعبـة تتراقـص علـى الجـدران مـن حولـه، وكأنهـا لعفاريـت أو مـردة تريـد اقتناصـه، حـاول تجاهـل كل هـذا وهـو يواصـل التحـرك، ازدادت الظـلال كثافـة واحتشـد الظـلام مـن حولـه أكثـر وأكثـر حتـى صـار

ضـوء المشـعل ضعيفـا وكأنــه مجـرد عــود ثقــاب صغيـر. وعلــى بعــد خطـوات وجـد الصبيــة الصغــار ذوي الوجــوه الزرقــاء والعيــون البيضــاء أمامــه وهــم يســدون الطريــق عليـه. حـرك المشـعل فـي وجوههـم وهـو يصـرخ فـي فـزع:

- ابتعدوا أيها الملاعين.

لـم يتحركـوا لكنـه سـمع هسـيس غاضـب بجـوار أذنـه مـن الناحيـة التـي يحمـل فيهـا لبيـب. نظـر إلـى وجـه لبيـب فـرأى أنـه لا يحمـل الصبـي.

كان يحمــل القــرد، وكان الأخيــر ينظــر نحــوه بعينيــه الصفراويــن فــي غضــب ومقــت.

صرخ فتحـي وهـو يحـاول أن يلقيـه بعيـدا عنـه، لكـن القـرد أمسـك فـي نفـس اللحظـة بجانبـي رأسـه وبـدأ يضغـط عليهمـا بقـوة كافيـة لتحطيمـه، نفـس مـا فعلـه بـه فـي الكوابيـس.

كاد يهشم جمجمته بيده.

راح فتحـي يصـرخ وهـو يحـاول تخليـص نفسـه مـن يـدي القـرد حيـن سـمع صوتـا مألوفـا:

- دعه لنا واهرب أيها الجندي.

كان صـوت الصـول إبراهيـم. وشـعر بيـدي القـرد تبتعـدان عـن رأسـه فـي تلـك اللحظـة، وعلـى ضـوء المشـعل الملقـى أسـفل قدميـه شـاهد المنظـر الغريـب. كانـت أشـباح رفاقـه

تحيط بالقرد وتتصارع معه في عنف. ظل في مكانه للحظة يراقب الصراع حتى سمع صوت الرائد محمد شريف يصرخ فيه:

- لماذا توقفت أيها الجندي. واصل الهرب.

وفي نفس الحظة اشتعلت النار في شبح الرائد محمد، فظهرت على وجهه علامات ألم شديد وكأنما يعاني من عذاب ضخم قبل أن يتلاشى للأبد وقد خلف وراءه مجرد ضباب أبيض اللون سرعان ما اختفى. اشتعلت النار بعدها في طيف في شبح جورج ملاك وسعيد المسيري، وكما حدث للرائد محمد راحت ملامحهما تتقلص في ألم، ثم تحولا هما الآخران إلى مجرد ضباب خفيف.

أدرك فتحي أن أشباح رفاقه تحارب معركتها الأخيرة لتنقذه من هذا الكائن الشيطاني، الذي بدا أقوى منهم جميعا وراح يحرق أشباحهم. كان عليه أن يستغل تلك الفرصة النادرة في انشغال القرد في القتال للابتعاد عن المكان.

هنا واصل فتحي العدو بكل قواه، وهو يدعو اللّه ان يعثر على طريق الهرب، لا يدري كم مضى من الوقت وهو يعدو في ممر حجري لا ينتهي، لكنه سقط فجأة على الأرض حين تعلق شيء ما بقدميه. طار المشعل بعيدا، وشعر بيديه تتمزقين من أثر السقوط، وحين نظر لقدمية كانت هناك ذراعان مخلبيتان تخرجان من باطن الأرض الصخرية وتمسكان يهما وتقيدانه.

حـاول تخليـص نفسـه منهمـا ففشـل، وجـد نفسـه يلهـث فـي عجـز ورعـب وقهـر.

أدرك أنهـا النهايـة حيـن خـرج مـن الجـدران التـي تحيـط بـه الأطفـال الصغـار الـزرق واتجهـوا نحـوه ثـم احاطـوا بـه فـي هـدوء مميـت.

ومـن نهايـة الممـر وعلـى ضـوء مـا تبقـى مـن وهج المشـعل رأي ظـل بشـري يتقـدم نحـوه فـي ثبـات، رفـع عينيـه فـي سـرعة ليطالـع وجـه سـارة التـي كانـت ترمقـه فـي هـدوء قبـل أن تقـول:

- مرحبا يا دكتور يا عبد الوهاب. لقد كنا بانتظارك.

وكان هذا آخر ما شعر به قبل أن يهوي عقله في الظلام.

***

(22)

حين أفاق فتحي وجد نفسه ولدهشته، راقدا على ظهره فوق فراشه. العجيب أنه في تلك اللحظة لم يشعر بغرابة وضعه ولا تساءل كيف انتهى به الأمر في حجرته ثانية، الأكثر غرابة أنه وجد في يده كشكول مذكرات الدكتور أشرف، المذكرات نفسها التي اختفت بغتة كالعدم من قبل أن يكملها، والآن ها هي مرة أخرى بين أنامله، ووجد نفسه يواصل قراءتها من نفس الصفحة التي توقف عندها من قبل.

- من مذكرات الدكتور أشرف سمير الدمرداش -

- تطورت الأمور بسرعة في البلدة، لم أعد أرى سكان البلدة في أي وقت، وحين جربت التسلل للمقابر في الليل كنت أعثر على اغلبهم هناك. فقط تكرر أمر العجائز المحتضرين الذين يجيئون بهم للوحدة الصحية ويطالبونني بالعناية بهم لثلاثة أيام ثم يعودون ليأخذوهم مرة أخرى، بالطبع تعلمت ألا أتناول الطعام الذي يأتيني به عبد النبي في تلك الأيام، ولهذا كنت أتوارى في منتصف الليل خلف النافذة وأنا أراقب برعب طقوسهم الليلة المخيفة.

واظبت سارة على زيارتي، وفى هذه المرحلة قررت أن أداري كل شكوكي، وأن أتجاوب معها في كل ما تطالبني أو تخبرني به، كنت أرغب بعنف في معرفة الحقيقة

كاملة، ولن احصل عليها بلا شك لو شعرت بشكوكي.

في قلب المعبد بعد عصر يوم خريفي دافئ بدأت تقص لي كيف جاء هذا المعبد ولماذا بناه القدماء في قلب الصحراء. كانت الحكاية قديمة للغاية، وكما زعمت فإن القصة كانت في مصر قبل بداية عصر الأسرات القديمة نفسه.

تقول القصة المعروفة التي درسناها بالمدارس، أن أوزوريس تزوج من إيزيس وأنجبا حورس، لكن أوزوريس أحب كذلك أخته نفتيس وكانت ثمرة علاقتهما هو أنوبيس، وحين علمت إيزيس بالقصة شعرت بالغيرة والغضب، وكان أن أمرت بنفي الطفل إلى العالم الآخر ليكون مسؤولا عن الموتى والتحنيط والمقابر.

لكن سارة كانت تصر على أن كل هذا هراء ميثولوجي من تأليف الكهنة في العصور المتأخرة ليداروا على القصة الحقيقية.

أصرت على أنه في التاريخ البعيد الغير معروف كانت هناك مخلوقات لا نعرفها الآن ذات قوى هائلة غير محدودة، قالت إنها أتت في زمن سحيق من وراء النجوم، وقتها لم يكن هناك بشر ولم تكن الأرض في ذلك الوقت هي نفسها التي نمشي عليها الآن، بدأ الأمر برجل وامرأة من تلك الكيانات، عاشا بمفردهما على الأرض وأنجبا أربعة أبناء توزعت قواهما المهولة بينهم، الكبير كان أوزوريس والثانية كانت إيزيس والثالثة هي

نفتيس والرابع كان أنوبيس. ورغم أن أنوبيس كان أصغرهم إلا أنه كان أكثرهم قوة وقد منحه أبويه قبل أن يتلاشيا نحو العدم كل ما بقي في داخلهما من قوة وسحر قديم.

يقال إن أنوبيس كان أكثرهم جمالا وعذوبة وميلا للحياة، كان يحب أخوته كثيرا، ولم يكن يضمر أي شر نحوهم. لكن أخوته الأكبر منه كانوا يكنون له في نفوسهم الكثير من الحقد والغيرة لأنه حظي بأغلب قوى أبويهما، كما خشي أوزوريس أن يقدم على استخدام تلك القوى الهائلة بداخله ضدهم يوما ما.

كان من المفترض أن يتزوج أوزوريس بإيزيس وأن تكون نفتيس زوجة أنوبيس. لكن أوزوريس قرر بالاتفاق مع أختيه وقد كانا يحبانه ويطيعانه أن يتزوج هو بالاثنتين وأن يطردوا أنوبيس نحو المستنقعات البعيدة. مضت الأعوام وأنجب أخوته الكثير من الأطفال، وأنوبيس في منفاه يشعر بالغضب والحسرة، في النهاية قرر أن يعود وأن ينتقم، لكن العقبة كانت أن قواه وإن كانت عظيمة فإن قواهم مجتمعة أكبر منه وسوف يقضون عليه بلا شك في أي مواجهة.

استعان بالحيلة، حول نفسه بالسحر إلى صورة كلب، وانطلق إلى ارض أخوته، وهناك راح يتربص بأبناء أخوته الصغار ويقتلهم ثم يلتهمهم، ومع كل طفل يقتله كان يمتص المزيد من قوة أخوته. في النهاية قضى على كل الأطفال وحينها صار قوى للغاية، كان قادرا وقتها على

القضاء على أخوته جميعا، وفي ذلك الوقت أدرك الثلاثة أوزوريس وإيزيس ونفتيس أنه الأقوى، وأنه هو من قتل أبناءهم.

قرروا الانتقام، ولكن كان عليهم اتباع الحيلة، دعوه لمأدبة للصلح، وأخبره أوزوريس أنه سيترك نفتيس لتكون زوجته كما كان مقدرا من قبل، وفي المأدبة أعطوه الكثير من الخمر حتى ثمل وفقد وعيه، حاولوا قتله وهو ثمل، فلم ينجحوا، فرغم كل شيء كان هو أقواهم. لكنهم وبما تبقى من قواهم وسحرهم أرسلوه إلى العالم الآخر وقد سحروا رأسه ليحمل رأس كلب للأبد كعقاب على قتل أبناءهم، وحكموا عليه أن يكون راعيا للعالم الأخر وأن يعتني بالموتى من أبناءهم، لم يكن هذا كل شيء، فقد جعلوا غذائه الوحيد الذي يرد إليه قواه هو أرواح الصغار، ونتيجة لهذا لم يعد ممكنا أن يرى ضوء الشمس ثانية وإلا أحرقته.

مضت عهود كثيرة، وظهر البشر وعبدوا تلك الكيانات القديمة ونسى الكل القصة الحقيقية، حتى عثر كاهن صغير يدعى (كا سن رع) وقد كان من كهنة منف ويتبع الإله أمون رع، على مخطوطات قديمة تتحدث عن القصة الحقيقة، كان قد بدأ يشك في جدوى كل الطقوس التي يقومون بها في معابد منف إرضاء لآلهة لا تسمع ولا تمنح ولا تستجيب. فلماذا لا يبحث عن إلهه هو؟ لماذا لا يبحث عن إله حقيقي يمنحه القوة ويحوله إلى كاهن أكبر ذي شأن. ولأن قدماء المصريون كانوا بارعين في

فنون السحر المظلم فقد بدأ الكاهن مباشرة في البحث عن الطقوس المناسبة لإعادة أنوبيس من العالم الأخر. رحل الى الصحراء وحاول كثيرا وقدم الكثير من القرابين وفي النهاية نجحت الطقوس.

علم منذ البداية أن سيده لن يخرج للعالم إلا في ظلام الليل وإلا حرقته الشمس. علم أن سيده بحاجة للقوة والقوة التي ينشدها لن تأتي إلا من القرابين البشرية من الأطفال والصبية. علم أن سيده بحاجة للمزيد من الاتباع الذين سيكونون باكورة جيشه الذي سيحكم به العالم. سجد الكاهن معلنا ولاءه فمنحه أنوبيس قوى غير محدودة لتساعده على القيام بعمله. راح يختطف الأطفال ويقدمهم كقرابين لسيده في الليل، راح يجمع الأتباع عن طريق منحهم أو منح أحبائهم الشفاء من أمراض لا علاج لها، وكان شرط ذلك الكاهن على أي واحد يرغب في الانضمام إليهم أن يقوم بقطع لسانه، فأنوبيس لن يقبل بلسان مجد إلها آخرا غيره.

وحين كثر الأتباع وشاع أمرهم، بدأت المعركة الكبرى بينهم وبين الكهنة من أتباع آمون رع، في الواقع مات الكثير من الكهنة في تلك الأيام عن طريق عمليات اغتيال قام بها أتباع أنوبيس، وبالاستعانة بسحر أنوبيس حل الظلام بأرض مصر ليل نهار واختفت الشمس، وبدأ أتباع أنوبيس يجوبون الشوارع في تحد واضح للجميع، وبدأوا يدعون الناس لتقديم أبنائهم قرابين لأنوبيس وأن ينضموا له وإلا ماتوا.

سادت الفوضى لفترة حتى استجمع الكهنة القدامى قواهم، ونجح سحرهم في التغلب على سحر أنوبيس وأعادوا النهار ثانية، ثم راحوا يطاردون أتباع أنوبيس في كل مكان ويقتلونهم بأبشع وسيلة ممكنة.

كانت الهزيمة قريبة، رآها (كا سن رع)، فاصطحب ما تبقى من الأتباع وانطلق إلى الصحراء البعيدة هربا من كهنة آمون رع، هناك عثروا على واحة صغيرة، استقروا بها ولأعوام طويلة وبجهد جهيد بنوا معبدا عظيما لسيدهم، ذكروا على جدرانه القصة الحقيقية له كي لا تضيع مرة أخرى، ولأنهم قتلوا كل أبنائهم حين قدموهم كقرابين لسيدهم، فقد انقطع نسلهم، ومع الوقت راح الاتباع يموتون وكان (كا سن رع) آخرهم، وقد ظل بمفرده يحيا في تلك الواحة ويعبد سيده لنحو مائتي عام.

لابد ان أحد ما قد اكتشف طريق الواحة بعد عقود طويلة، ربما كانوا مجموعة من البدو أو الطوارق أو العربان، استقر هؤلاء في الواحة وعمروها وأطلقوا عليها دير النعمان، لكنهم تعلموا منذ البداية أن هناك خلف التلال معبد مدفون ملعون، وأن الشياطين تسكن جدرانه، وأنه يمثل خطرا كبيرا على أطفالهم، حيث لم يذهب إلى هناك أي طفل إلا واختفى على الفور، وكأنما يتبخر في الهواء أو تبتلعه الأرض.

ثم جاءت سارة لتدرس عادات الشعوب البدائية كما تزعم، واكتشفت طريق المعبد، كانت تقسم على أن روح (كا من رع) قد تلبستها، وجعلت منها الكاهنة الكبرى

لأنوبيس، وعلمتها الطقوس المناسبة لإعادة أنوبيس للعالم ثانية، كما أمرتها روح الكاهن القديم بجمع الأتباع مرة أخرى، بعد أن منحها (كا سن رع) كل قواه.

أخبرتني سارة أن الأمر كان عسيرا، فمن المستحيل إقناع أهل البلدة المسلمين بترك دينهم السماوي واتباع إله وثني قديم، لكنها استعانت بسحر قديم دسته في مياه آبار البلدة كلها وأصاب أهالي البلدة كلها بمرض لعين راح يحلل أجسادهم وهم أحياء. هنا بدأت في تنفيذ مخططها حين عرضت عليهم علاجهم بسحرها، وبعدها صارت البلدة كلها من اتباعها وأتباع سيدها.

أرادت سارة مني أن أتبعها أنا الآخر بكامل إرادتي، راحت تتحدث بحماس عن المنح العظيمة التي سوف أحصل عليها لو وافقت، وأولها بالطبع أن تكون هي لي، تكلمت عن الحياة الدائمة لقرون طويلة سويا، عن العالم الذي سوف نحكمه معا يوما ما تحت الاستعانة بأنوبيس.

في الواقع كنت متأكدا أن الفتاة الغربية التي سقطت في حبائل عشقها قبل اليوم قد جنت تماما، وحتى لو كانت الشواهد تؤكد أن هناك شيطان قد سيطر على تلك البلدة الصغيرة فلا أظن أنها بقادرة على الظفر بما هو أكثر، دعك من أني في النهاية رجل مسلم ولن أتبع تلك الخزعبلات لأي سبب كان.

لم أخبرها برفضي، وقررت البحث عن حل لأنقذ تلك البلدة البائسة من تلك المجنونة وشيطانها المزعوم،

يمكنني بالطبع أن أغادر البلدة كلها وأنساها ولأدع للأخرين مهمة اكتشاف تلك الممارسات الكافرة والتصدي لها، وكان الخيار الآخر محاولة التصدي لتلك الممارسات وحدي، بالطبع لن أنتظر المساعدة من أحد من أهالي البلدة. وقتها وكأنما ألهمني اللّه بما عليّ فعله، تذكرت حكاية حكاها لي يوما أحد شيوخ البلدة، لقد قال إنهم عثروا مرة بالقرب من الواحة في قلب الصحراء على بضع عربات حربية ومدرعات تعود للحرب العالمية الثانية، ومن الرمز المطبوع على هياكلها وكان صليبا معكوفا، أدرك الكل أنها تخص الألمان وأنها حتما تعود لبعض جنود القائد روميل الذين كما يبدو قد تاهوا في الصحراء وضلوا طريقهم، كانت المدرعات مكتظة بالمتفجرات والأسلحة، والعجيب أنهم لم يعثروا على أي من الجنود التي كانوا عليها.

فكروا في البداية في التخلص منها، لكن أحد الشيوخ اقترح الاحتفاظ بها وحفظها في مخزن صغير بالبلدة، إنهم ليسوا بحاجة لها الآن لكن ماذا لو هددهم خطر ما في المستقبل؟ يمكنهم حينها بالطبع استعمالها للدفاع عن البلدة وأهلها.

كنت أعلم أين يكون هذا المخزن، وكنت أعلم أنه لا أحد يحرسه، فلا أحد في البلدة كلها قد يفكر في سرقة تلك المتفجرات أو يحاول الحصول عليها. هنا تسللت إلى ذلك المخزن وهناك عثرت على كل ما أرغب فيه. الكثير من أصابع الديناميت والقنابل المتفجرة والتي بدت لي

أنها لا زالت صالحة للاستخدام.

كانت الخطة بسيطة، واليوم هو موعد تنفيذها.

إنه منتصف النهار الأن، الشمس تتربع كبد السماء، ولا أحد هناك مستيقظ في البلدة بأكملها كما أعلم، وضعت المتفجرات في حقيبة جلدية كبيرة. سوف أذهب في البداية إلى البئر، وسوف ألقي بداخله كمية كبيرة من القنابل الكفيلة بردمه تماما. بعدها سوف أتجه إلى ما بقي من المعبد القديم لتفجيره بباقي المتفجرات هو الأخر.

أعلم أن الأمر لو نجح فقد يعني هذا انقاذ البلدة كلها من هذا الشر، لكن ماذا لو فشلت؟

كلا، لا أريد التفكير في احتمال الفشل الآن، فهذا سيعني نهايتي بلا شك.

ليكن اللّه معي، وليوفقني في تلك المهمة الخطيرة.

انتهت المذكرات، في نفس اللحظة كانت هناك أصوات صاخبة تدوي في أذني فتحي، وحين فتح عينيه ورأي ما يدور حوله علم أنه كان يحلم وأنه الآن يعود لأرض الواقع ليواجه أسوء خطر ممكن.

***

(23)

كان في منتصف المقابر والبئر القديم إلى يساره، كان في قلب الليل وكانت السماء تمطر كعادتها بغزارة.

كانت الطبول القادمة من مكان مجهول تدوي في عنف مزق سكون الليل كله.

من حوله رأي فتحي أهالي بلدة دير النعمان هناك وهم يصنعون دائرة حول المكان ويرتلون بطريقتهم العجيبة تراتيلهم الوثنية التي يستدعون بها بلا شك سيدهم أنوبيس. حيوانات بنات أوى تكومت في ركن وهي ترفع عقيرتها وتصرخ هي الأخرى مع التراتيل، وفي جانب آخر كانت الذئاب محتشدة هي الأخرى وتعوي مع الباقين في نشيد جنائزي مقبض.

كانت سارة تقف إلى جواره، لكنها بدت في جمودها في تلك اللحظة شخصا آخر لا يعرفه. كانت ترتدي زيا فرعونيا أبيض اللون، وفوق صدرها قلادتها الذهبية الغريبة، بينما كانت عيناها غاربتين وتشيان بأن عقلها غائب في مكان آخر.

انتبه فتحي إلى ملابسه، كان هو الآخر يرتدي زيا فرعونيا من أزياء الكهنة القدماء. العجيب أنه كان حرا بلا قيود، ورغم هذا شعر بأن إرادته لم تعد تنتمي إليه وأنها صارت في يد شخص آخر يتحكم فيه.

انطلق في الأفق المظلم لسان من البرق، ودوى الرعد في عنف اهتز له المكان. ومن قلب البئر ارتفع عمود كثيف من دخان ونار، ثم انقشع عمود النار ليظهر أنوبيس.

مارد من ظلام حالك له رأس كلب وعينان صفراوان تتوهجان في ضوء لهبي، وقدمان مشعرتان تنحني ركبتيهما للخلف كقوائم الحيوانات. وفي يده صولجان ذهبي ضخم ينتهي برأس كلب.

كان أنوبيس محاطا في تلك بالكثير من الأطفال الزرق ذوي العيون البيضاء. وخلفه كان القرد هناك بوجهه الشرير وعينيه الصفراويين المشقوقتان بالطول كالثعابين.

ساد الصمت في المكان كله، وقد صوبت العيون كلها في خشية ثم تقدمت سارة نحوه وركنت على ركبتها. وقد خفضت رأسها في خضوع، فتبعها الجميع وركعوا له.

ولذهوله ورغم أنه من المستحيل أن ينحني لأي مخلوق، فقد وجد فتحي أنه يركع مثلهم رغما عنه، حاول المقاومة، حاول رفع رأسه، أو عدل ظهره ليقف، لكن قوة كاسحة لا تقاوم أعجزته عن كل هذا. انطلق من السماء في تلك اللحظة سوط جديد هائل من البرق، ضرب رأس أنوبيس فتوهج جسده كله كمارد رهيب من نار، فزأر أنوبيس في قوة بصوت اهتزت له جدران

التلال من حولهم. هنا نهضت سارة من ركوعها فتبعها الباقون، وبخوف هائل لا حد له أدرك فتحي أن العيون كلها مصوبة نحوه، وخاصة عينا أنوبيس الناريتان، ثم تحرك نحوه انوبيس، وبيد لها أصابع ثلاث رفعه فجأة من وسطه وقربه من وجهه المخيف وعينيه الغاضبتين، ثم دفع رأس صولجانه المشتعل في صدره.

كان الألم رهيبا.

أراد فتحي أن يصرخ كما لم يصرخ من قبل، أن يفقد وعيه، بل تمنى لو يموت في تلك اللحظة، كي يتوقف هذا الألم الهائل الذي يشعر به في صدره، لكن شيئا من هذا لم يحدث. فقط ظل لنحو الدقيقة يعاني من الوجع ثم تركه أنوبيس. هنا بدأ الألم في الانحسار سريعا ثم زال تماما، مخلفا نقشا محترقا ضخما على صدره في صورة رأس أنوبيس الشبيهة بالكلب، وبينما عاد أهالي بلدة دير النعمان لأناشيدهم الوثنية ثانية أشار أنوبيس بإصبعه نحو الصخرة التي يرقد فوقها الشيخ صالح ولبيب.

التقطت سارة أحد المشاعل وقربتها من الأرض فاشتعلت دائرة ضخمة من اللهب أحاطت بالصخرة الراقد عليها لبيب والشيخ صالح. ثم مدت سارة يدها إلى فتحي ووضعت في كفه خنجرها الضخم. وجد فتحي نفسه يلتقط الخنجر من يدها دون أن يرفض وسمعها تقول في صوت بارد رتيب:

- حان الوقت، قدم قربانك لسيدنا أيها البشري.

تحرك فتحي في آلية نحو الصخرة، واخترق النيران الملتهبة دون أن يصيبه سوء. كان عاجزا عن السيطرة على نفسه رغم أنه أدرك في رعب ما سوف يفعله. قوى هائلة على تسيطر على جسده رغم رفض القيام بما هو مقدم عليه.

تعالت صرخات أهالي البلدة.

عوت الذئاب طويلا والضباع وبنات آوى.

وأمام جسد الطفل الراقد فوق الصخرة ارتفعت يد فتحي بالخنجر لأعلى، وبقوة لاحد لها هوى نحو قلب لبيب فاخترقه.

ازداد الصخب في نشوة وزأر أنوبيس في رضا.

وارتفع الخنجر مرة ثانية قبل أن يهوى على جسد الصبي.

وارتفع مرة ثالثة ورابعة وخامسة وهو يمزق الطفل بلا رحمة، هنا نهض الشيخ صالح في تلك اللحظة وتقدم نحو فتحي ثم فتح فمه وأخرج لسانه، فهوى فتحي على اللسان وقطعه بلا تردد، صار هدير الجميع في تلك اللحظة كالجنون نفسه، وأسرعت بنات أوى نحو جسد لبيب وراحت تنهشه وتمزقه وتلتهمه في شراسة.

كان فتحي يشعر بالفزع، والخزي، وتمنى لو استطاع أن

يرفـع الخنجـر الـذي فـي يـده ثـم يهـوي بـه علـى قلبـه هـو، ليمـوت فـي تلـك اللحظـة، لقـد أطـاع شـيطانا رجيمـا وقتـل بيـده طفـل بـرئ. أي عـار سـيعيش فيـه مـا بقـي مـن عمـره.

لكنـه وجـد نفسـه يتحـرك نحـو أنوبيـس، وينحنـي أمامـه وهـو يرفـع الخنجـر بيديـه ويقدمـه لـه، فـي تلـك اللحظـة دوى فـي رأسـه صـوت رهيـب لـم يسـمعه بشـري مـن قبـل:

-لا زالـت تقـاوم ولا تؤمـن أيهـا الفانـي، لكنـك قريبـا سـتفعل.

ثم غاب عقله في ظلام سرمدي.

***

(24)

كان الظلام من حوله كثيف للغاية، وكان صدره المحترق ينبض في تلك اللحظة بألم لا يطاق، شعر بضعف لا حد له، لكنه ومنذ أفاق من غيبوبته كان وحيدا في هذا السجن، كان يعلم أنه في قلب البئر، في فجوة مماثلة بلا شك لتلك التي حبسوا فيها الدكتور أشرف، لكن الغريب أنهم لم يهتموا بتقييده، لقد تركوه حرا وكأنما كانوا واثقين للغاية أنه أضعف من أن يفكر في الهرب.

لم تفارق الطقوس اللعينة عقله منذ أفاق. صدره الذي وسمه أنوبيس بصولجانه، ثم لبيب الذي قتله بيده. راح يبكي في جزع طوال الوقت وهو يتمنى لو مات قبل تلك اللحظة. لقد جاء إلى هنا لينقذه وبدلا من هذا قتله بلا رحمة. مضى وقت طويل وهو ينتحب، ثم راح ينظر حوله في يأس وكأنما يفتش عن أحد في الظلام.

في الواقع كان يفتش عن أشباح رفاقه، أين ذهبوا ثم تذكر أنهم قد احترقوا في صراعهم بالأمس مع القرد. ومع الألم والظلام والسكون غاب ثانية في النوم.

أفاق على يد تهزه في قوه وصوت يهمس:

- استيقظ يا دكتور فتحي.

أفاق ليجد ضوء شمعة في مواجهته ووجه امرأة خلفه. كانت عايدة، رمقها في ذعر للحظة وهو يصرخ:

- كلا ابتعدي عني.. ابتعدي.

لكنها أسرعت تقول وهي تمد يدها نحو فمه لتكتم صرخته:

- إنه انا يا دكتور. أنا عايدة.. لكن لا تصرخ أرجوك، لا أريد أن ينتبهوا إلى وجودي قبل أن أنتهي من عملي.

استعاد جنانه ووجد نفسه يبكي بغتة وهو يقول في صوت متقطع وسرعة:

-أنا آسف يا عايدة، لقد قتلت ابنك، قتلت لبيب بيدي، لكن أقسم أنني لم أكن أقصد. صدقيني لم أكن أقصد.

وضعت كفها فوق فمه وهتفت في حزم غريب:

- لا وقت لهذا، فقط اتبعني بلا صوت أرجوك.

- إلى أين؟

- سوف نخرج من هنا.

قالتها وتحركت أمامه حامله الشمعة فتبعها في وهن. سارا في كثير من الممرات الحجرية حتى بلغا قلب البئر مرة أخرى، فوضعت عايدة الحبل في يده وهمست:

-هل يمكنك صعود الدرج؟

رمقها في ذهول وكأنه لا يصدق ما يحدث ثم غمغم:

-هل أحلم؟

هزته في قوة وهي تقول:

-أفق من فضلك يا دكتور، إنها فرصتك الأخيرة لتهرب، فلا تضيعها،

ثم سبقته في صعود الدرج وهي تستطرد في حزم:

-والأن اتبعني.

تبعها على الفور وهو يقبض على الحبل بقوة وشيئا فشيئا راحت فوهة البئر تظهر من بعيد وضوؤها يزداد قوة حتى بلغ حافة البئر وخرج منه خلف عايدة. أصابه الضوء الساطع بالعمى المؤقت فأغلق عينيه لفترة ثم فتحهما ببطء حين اعتاد على ضوء النهار ووجد عايدة ترمقه في جمود غريب، ثم قالت:

- والآن عليك أن تغادر البلدة في الحال. لا يمكنك أن تظل هنا بعد الآن دقيقة واحدة.

- وإلى أين أذهب؟

أشارت إلى طريق صخري على شمال المقابر وقالت:

-لا تخرج عن هذا الدرب حتى تصل إلى مزارع الزيتون، وهناك ستجد الطريق الذي جئت منه في منتصفها. بعدها اجعل البلدة كلها خلف ظهرك وتحرك في الطريق المعاكس حتى تجد النجدة. ربما عثرت عليك سيارة أو بعض البدو. فقط لا تعد إلى هنا مرة أخرى.

رمقها في غير تركيز ثم قال:

- وماذا عنك؟ لماذا لا تهربين معي.

لاح على شفتيها شبح ابتسامة وهي تجيب:

- لقد فات الوقت يا دكتور، لقد ماتت عايدة بالأمس، ماتت مع موت ابنها الوحيد، من تراها شبح امرأة محطمة تحاول ان تنتقم.

ثم أشارت إلى الطريق وهتفت في حزم:

- والآن تحرك ولا تطل الوقت.

رآها تحمل حقيبة جلدية تمتلئ بشيء ما وتعاود هبوط البئر، ثم اختفت داخله، وبلا إبطاء تحرك حيث أشارت، لم يكن قد ابتعد كثيرا حين سمع من خلفه صوت انفجار مكتوم اهتزت له الأرض أسفل قدميه، وحين نظر للخلف كان كل ما رآه عمود من الدخان والنار ينطلق من الأرض نحو السماء. أدرك في تلك اللحظة ما قامت به عايدة، لقد فجرت البئر، وقامت بنفس ما أراد الدكتور أشرف فعله من قبل.

هل قضت بهذا على اللعنة وعلى أنوبيس؟

وهل تحررت البلدة من تلك اللعنة؟

وماذا عن سارة، ما مصيرها الآن وقد تفجر معقل شيطانها القديم.

لم يكن يدري بالطبع، لكنه لن يجازف حتما بالعودة ليتأكد من شيء كهذا. فقط عليه أن يبتعد لأبعد مكان

ممكن كي لا يحاول أحد من دير النعمان تعقبه.

واصل السير حتى بلغ مزارع الزيتون في إعياء، اخترقها حتى بلغ الطريق الرئيسي الذي يمر بها، نظر أمامه فكانت بلدة دير النعمان ببابها الصخري في مواجهته. أولاها ظهره وانطلق عائدا على قدميه في نفس الطريق الذي أتى فيه من قبل، لا يدري كم سار وكم من ليل ونهار مضيا عليه وهو على هذه الحال، فقط في النهاية وقد بلغ منه الإعياء والجوع والعطش مبلغه قرر أن يستسلم لقدره فرقد على الطريق الصخري وأغمض عينيه في انتظار الموت.

لم يشعر بالشاحنة التي توقفت أمامه، ولا السائق العجوز ذي الأنف المحمر من أثر السكر الذي رمقه في تعجب ثم قال:

-يا اللّه، إنه الدكتور، ما الذي جاء به إلى هنا ومن فعل به هذا؟

ثم رفع نظره نحو الأفق حيث توجد دير النعمان بعد نحو عشرين كيلو متر وقال وهو يضرب كفا بكف:

- إنها تلك البلدة الملعونة مرة أخرى، لقد حذرته، لكنه كان كالباقين أحمق عنيد.

ثم حمله ووضعه في شاحنته واستدار عائدا.

***

الخـــــاتمة

-دكتور فتحي، هل تعلم أين أنت الآن؟

كان الدكتـور محمـد عبـد السـتار مديـر مستشـفى العباسـية للأمـراض العقليـة يتحـدث إليـه وهـو ينظـر لجـدران الحجـرة التـي امتـلأت برسـومات طفوليـة عجيبـة مرسـومة بقلـم رصـاص، كانـت هنـاك صـور كثيـرة لرجـل لـه رأس كلـب يصعـد ممـا بـدا أنـه كبئـر، أطفـال صغـار مقطوعـي الـرأس، كلاب كثيـرة وفتـاة طويلـة فـي يدهـا سـكين. كانـت الرسـومات تتكـرر بشـدة فـي كل شـبر مـن الجـدران ممتزجـة بأسـماء تتكـرر هـي الأخـرى أنوبيـس وسـارة وعايـدة وديـر النعمـان.

لـم يجـب فتحـي، فتطـوع الطبيـب الشـاب الـذي يرافـق الدكتـور محمـد فـي الإجابـة:

-إنه يرفض التحدث الأن كما أخبرتك يا سيدي؟

أشار الدكتور محمد للجدران وقال في حيرة:

-وهو الذي رسم كل هذا؟

-أجل يا سيدي.

-ومن أعطاه القلم ليفعل هذا؟

شـعر الطبيـب الشـاب بالتوتـر فاحمـرت أذنـاه مـن التوتـر وهـو يجيـب:

-لقد كان يهذي في البداية بكلام غير مفهوم. كان يصرخ طوال الوقت وهو يردد حكايات غير مفهومة، قال إن الشيطان سوف يدمر العالم، وأن أنوبيس قد عاد، وأنه قتل أشباح زملائه الذين ماتوا في الحرب، وأن سارة لها كلبان سوف يأكلانه. لم أفهم الكثير من الضلالات والهلاوس التي يخبرنا بها، وحين صمت تماما بعدها ورفض التحدث، قررت القيام بحيلة جديدة، فمنحته (قلم رصاص) لأرى ما سوف يحاول كتابته أو رسمه.

هز الدكتور محمد رأسه في بطء، ثم قال لفتحي:

-هل يمكنك أن تخبرني يا دكتور فتحي، ما معنى كل هذا. ومن هي سارة أو أنوبيس هذا الذي تتحدث عنه؟

لم يلتفت إليه فتحي أو يبدو على وجهه أي أثر لحديث الدكتور محمد، فقال للطبيب الشاب:

-منذ متى وهو هنا؟

-منذ أسبوع كامل. جاء به سائق غريب وقال إنه وجده في الصحراء وقد فقد عقله، لكنه حين أخبرنا أنه طبيب اهتممنا بالطبع كثيرا وخاصة حين وجدنا في جيوبه بطاقة شخصية تؤكد هويته.

مرة أخرى هز الدكتور محمد رأسه في هدوء قبل أن يغمغم:

- وماذا عن الوشم الذي أخبرتني عنه في صدره؟

تحـرك الطبيـب الشـاب نحـو فتحـي وجـذب قميـص لأسـفل يكشـف عــن ندبــة كبيـرة فــي صـدره علــى صــورة رأس كلـب، وقـال:

- إنهـا هـذه يـا سـيدي، لقـد تـم صنعهـا بالكـي بالنـار كمـا تـرى.

وهــل أخبرتــم الدكتــور محمــد شــاهين بتلــك الحالــة؟ إنــه شــغوف كمــا تعلــم بتلــك الحــالات المرضيــة المرتبطــة بأحــداث غامضــة غريبــة.

أسرع الطبيب يقول:

- ليـس بعـد يـا سـيدي، لكننـي سـوف أتحـدث إليـه فـي الغـد.

رمـق الدكتـور محمـد الوشـم مـرة أخـرى فـي حيـرة، قبـل أن يقـول:

- ترى من فعل به هذا؟

فـي المسـاء كان المـكان هادئـا للغايـة وضـوء خفيـف للغايـة ينتشـر فـي الممـرات بيـن حجـرات المرضـى، المرضـى نامـوا جميعـا والممرضيـن والحـراس بعضهـم قـد نـام هـو الأخـر والباقـون يجلسـون فـي أماكنهـم يقتلهـم السـأم والملـل.

كان فتحــي راقــدا حينهــا علــى جنبــه فــي المستشــفى وقــد استسـلم للنـوم، بفعـل المهدئـات الكثيـرة التـي يعطونهـا لـه، لكنـه مـرة واحـدة فتـح عينيـه وقـد أفـاق بغتـة مـن سـباته،

ثم جلس على طرف الفراش.

ارتعش النور في الخارج وأظلم المكان كله للحظات ثم عاد الضوء، هنا رأى فتحي سارة تقف أمامه وهي تبتسم، وفي يدها خنجرها الغريب. وإلى جوارها ظهر القرد بعينيه الصفراوين وهو يرمق فتحي في هدوء. لم يبد على فتحي أي أثر للمفاجأة أو الخوف. فقط ظل ينظر إليهما هو الآخر في هدوء، حتى قالت سارة:

-مرحبا يا دكتور فتحي، والآن هل أنت مستعد؟

أجابها فتحي بأن فتح فمه وأخرج لسانه نحوها، فابتسمت له وهي ترفع خنجرها وبحركة سريعة قطعت لسانه، فطار اللسان المقطوع وسقط أسفل الفراش في نفس اللحظة التي أظلم فيها المكان كله مرة أخرى.

وحين عاد النور كانت الغرفة فارغة تماما. ولا شيء هناك غير آثار لبعض الدماء الطازجة على طرف الفراش والأرض ولسان مقطوع ملقى أسفل الفراش.

وكان هذا كل ما وجوده في الحجرة في اليوم التالي.

أما عن فتحي، فلم يعثروا عليه أبدا.

تمت

كلمة شكر

إلــــــى

د. سالي مجدي ..

د. ماجد عبدالحميد

د. أحمد الديب

د. سمير الحسيني

شكـــــرا

صدر للكاتب:

الجثة الخامسة (رواية)

عهود الدم (رواية)

الشيخ الأسود (رواية)

نجع الموتى (رواية)

الحاكم بأمر اللّٰه (رواية)

قربان بشري (مجموعة قصصية)

الجثة الخامسة ٢ (رواية)

خارج ظل الرجل (ترجمة)

الأعمال الكاملة للافكرافت الجزي الأول (ترجمة)

ن للنشر والتوزيع

ت 02-35860372 011-27772007

info@noonpublishing.net